أمنية عاشق

عنـــوان الكتـــاب: امنيـــــة عاشـــــق
الموضـــــــوع: مجموعة قصصية
التـــأليـــــــف: أمنيـــة عبـــد العزيـــز
مراجعـــة لغويـــة: محمـــــود بكــــــري
إخـــــراج فنـــــي: محمـــــد منصـــــور
تصـــميم الغـــلاف: ســــــيد مصـــــــطفى
رقـــــم الإيـــــداع: **2020/20064**
التـــرقيم الـــدولي: **5- 93- 6639- 977- 978**
الناشـــــــــــــر: دار تويتة للنشر والتوزيع

www.facebook.com/Tweetforpublish
tweetpublishing2017@gmail.com
٧ش محمد أبوالعطا- محطة العريش-فيصل- الجيزة
رئيس مجلس الإدارة: م/ أحمد عبد العزيز
المدير العام: أ/ رشا العمري
01017799799

#غرّد_للعالم

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

أمنية عاشق

مجموعة قصصية

أمنية عبدالعزيز

إهداء

إلى مَن أمسكت بيدي عند أول

كلمة سَطَّرتها، وحكت لي آلاف

القَصَص، وكانت دائمًا ذلك الفنار

الذي يرشدني إلى الطريق.

إلى أمي، سأحبكِ دائمًا.

أردت أن آخذكم معى أصدقائي في
رحلة في ذلك العالم الغريب الذي يُدعى
الحب، فكلما اقتربنا منه، ابتعد عنا،
وكلما حاولنا فَهمه، وجدناه يصعب
علينا شيئًا فشيئًا، وكلما كافأناه، عاقبنا،
فليس هناك ميزان في الحب، ولكنه
رغم ذلك، ليس سيئًا، فلولاه، لَما عرفنا
سعادة ذلك الشعور الغامض.
فلنبدأ رحلتنا بسم الله.

لاقطة الأحلام

رياح باردة تَرتطِم بوجهي، تنفذ إلى القلب تُشعِرني بلسعة برد وأنا مستلقية على سريري في مواجهة النافذة، أستمع إلى صوت الموسيقى الصادر عن لاقطة الأحلام لاصطدام الهواء بها، أسمع صوت ككمان يُعزَف عليه، أهب من سريري وأسير باتجاه النافذة؛ لأرى ما يحدث تُرى هل يُخيل لي؟ أنظر للسهول الخضراء أمام البيت، وقد اقترنت بالسواد لظلام الليل ثم ألمح شيئًا يتحرك بين الشجيرات الصغيرة ترى هل هو حيوان صغير؟ ما ألبس أن ألمح خصلات شعر سوداء تُغَطي الكتفين لشاب طويل يستند على جذع شجرة صغيرة ممسكًا بكمان، أسمع قليلًا من اللحن كأنه تهويدة لنومي ثم أنظر إليه مرة أخرى ترى من هذا الشاب؟ وما الذي أتى به إلى هنا؟ ثم تهب رياح شديدة فجأة؛ لتُصدِر لاقطة الأحلام صوتًا أعلى فيُوقِف الشاب العزف؛ لينظر وراءه فيشاهدني واقفة بالنافذة، فنهض واقفًا من مكانه واتجه نحوي، شعرت بقلق بعض الشيء ثم ما لبس أن اقترب من سياج منزلنا مبتسمًا.

وقال: مرحبًا أنا جاركم الجديد بالمنزل المجاور، أعتذر إن كنت قد أقلقت منامكِ بعزفِ.

فرددت قائلة: لا تأبه، فقد شردت مع عزفك أيضًا وأعجبني كثيرًا.

- شكرًا لكِ آنستي حسنًا أراك إذًا بالصباح.

وما لبس أن اختفى في الظلام. ترى هل هذا شخص حقيقي أم أنني أحلم مجددًا؟

أتجه عائدة إلى سريري وأنا في حيرة: ترى يقصد أي منزل؟ فالمنزل المجاور لنا خالٍ منذ مدة كان لعائلة ثرية ولها ولد، ولكنهم لم يترددوا على المنزل منذ سنوات طويلة، حتى أني لا أعتقد بأني أتذكر ملامحه أو ملامح باقي أفراد العائلة، فقد مرت سنوات، سوف أسأل أمي عنهم بالصباح.

أعود لسريري، لعل النوم يلحق بي، ولكن تشتد الرياح بالخارج، فأسمع صوتًا مزعجًا لحفيف الأشجار يبدو بأني لم أقفل النافذة جيدًا، فأتجه إليها؛ لأُغلقها فألحظ ظلالًا غريبة بالخارج، يبدو أني أتوهم مجددًا، فأغلق ستائر النافذة وأعود إلى سريري وأغلق عينيَّ وأبدأ بالعد حتى أغفو.

في الصباح الباكر، تنبهت على صوت أمي وهي تنادي باسمي كي أستيقظ وأشاركها الإفطار، فأقوم من سريري وأغسل وجهي وأتوجه للمائدة بأعين نصف مغمضة: صباح الخير يا أمي... فترد قائلة: صباح الخير حبيبتي، على أن أنهي الفطور سريعًا، فلدي عمل متأخر بالمكتب.

فأوجه لها السؤال: هل علمتِ يا أمي أن جيران المنزل المجاور قد عادوا للسكن هنا مرة أخرى؟

فتجيبني حقًا لم أرَ أي منهم حتى أن مندوب شركة الكهرباء أتى منذ يومين ويقول: إنهم لم يسددوا اشتراك المنزل عامين كاملين، كنت أظن أنهم قد غادروا البلاد أو ما شابه.

فأتساءل: حقًا لم تشاهدي أي شخص؟

فتجيبني أمي مؤكدة أنها لم ترَ شيئًا، وتخبرني أنهم إذا عادوا حقًا، فيجب أن ترحب بهم، فقد كانت زوجة صاحب المنزل امرأة لطيفة قابلتها عدة مرات وأخبرتني أنني يمكن أن أذهب للترحيب وآخُذ قالب حلوى من الثلاجة، فقد أعدَّت أمي الكثير من الحلوى مؤخرًا.

فقلت لها: حسنًا أمي، سأفعل.. فقد كان ينتابني الفضول أيضًا بشأن جيراننا الجدد أو قل القُدامى باعتبار ما كان. ودعَّتني أمي وذهبت للعمل، وبعد إنهائي للفطور وتوضيب المائدة، صعدت لغرفتي واستحممت ومشطت شعري وجففته وهرعت إلى خزانة ملابسي، كنت أريد انتقاء ملابس صوفية، فنحن في منتصف شهر فبراير، ولكن الجو يزداد برودة تلك الأيام، عما كان عليه ببداية فصل الشتاء.. فارتديت بنطالًا وبلوفر من الصوف باللون الأخضر الزاهي ونزلت للطابق السُفلي، فأخذت قالب الحلوى والمفاتيح. ثم خرجت وتوجهت لبيت الجيران.

وصلت أمام باب المنزل وبدأت بدق الباب، ولكن لم يجبني أحد، لاحظت عدم وجود أي مصابيح مُضاءة، لا يوجد غير خيوط العنكبوت والكثير من الغبار يحيط بباب المنزل، كنت أهم بالرحيل، ولكن باب المنزل فُتِح فجأة ولم يظهر أحد.. فناديت: مرحبًا، هل من أحد هنا؟ أنا جارتكم من المنزل المجاور. لم يجبني أحد ولم ألحظ غير التراب الكثيف وخيوط العنكبوت بكل ركن داخل المنزل، وكأن لم يزره أحد منذ قرون. سمعت صوت باب يُفتَح ويُغلَق، فناديت من جديد ولم يسمعني أحد، ففتحت باب الغرفة، كانت غرفة نظيفة نوعًا ما ليست كباقي المنزل. وهناك الكثير من اللوحات على الحائط لرسوم سيارات سباق وهناك عدة كرات بجانب الغرفة

(كرات سلة ويد) يبدو أنها غرفة لشاب مراهق، ولاحظت إطارًا لصورة مقلوبة على المكتب، فرفعتها لأجد صورة تُشبِه ذلك الفتى الذي رأيته البارحة، ولكنه يبدو أصغر سنًّا بالصورة، ولكن الإطار الزجاجي مُحَطَّم، وفجأة سمعت صوت دق على الأبواب بشكل مُفزِع، فانتفضت وسقط قالب الحلوى من يدي وخرجت وأنا أهرول باتجاه منزلنا. فقد كانت فكرة حمقاء، فيبدو لي منزلًا مهجورًا. لا شك أنه منزل الصِبى يمكن أن يكون رحل ليلة البارحة أو في هذا الصباح الباكر، فمن يريد العيش في منزل مهجور كهذا..

في المساء، عندما عادت أمي، جلسنا لتناول العشاء، وكانت أمي في العِقد الخامس من عمرها امرأة جميلة ذات شعر أسود قصير وأعين خضراء، تزوجت أبي وعاشا مع بعضهما في سعادة مدة ثمانية عشر عامًا، ومنذ عامين، تُوُفِي أبي في حادث سير.استغرقت أنا وأمي الكثير من الوقت لتخطي تلك الحادثة، ومنذ ذلك الوقت، تُشغِل أمي نفسها بالكثير من العمل بمكتب المحاماة، فقد كانت خريجة كلية الحقوق، وتعرَّفت بأبي بمرحلة الجامعة وكان هو طالبًا بكلية الآداب وبدأت قصة حبهما أثناء الجامعة ثم تزوجا بعد التخرج بعدة سنوات. أما أنا، فكنت أُشغِل نفسي بالدراسة وبالعمل على بعض مواقع الإنترنت أحيانًا، ولكن لم يكن لديّ الكثير من الأصدقاء طوال الوقت، أُغلِق بابي على نفسي، وأهيم بالفضاء. في بعض الأحيان، كنت أكتب بعض الخواطر ولقد أعجبت زملائي بالجامعة كثيرًا حتى أنهم اقترحوا عليَّ إنشاء مدونة على الإنترنت، وبالفعل، قمت بذلك، وأصبحت تأخذ الكثير من وقتي، وأصبحت أستلم طلبات في بعض الأوقات لإضافة إعلانات

على مدونتي؛ لذلك صارت حياتنا ميسورة نوعًا ما. ولكنني تلك الأيام أفتقد أبي بشدة وأفتقد الحديث معه وأصبحت أشعر بملل كبير من كل الأشياء التي أعهدها.

حتى عندما نجلس للمائدة أنا وأمي، لا نجد الكثير لكي نتحدث به. تذكرت مشهد فيلم الرعب الذي حدث لي بالصباح. فأخبرت أمي أني ذهبت للمنزل المجاور ولم أجد شيئًا. فيبدو مهجورًا حقًّا وأخبرت أمي عن ذلك الشاب.

فقالت: إنها ستسأل الجيران عنهم في الصباح، فربما يكون هناك لص بالجوار، وخاصة أن المنزل يقع في منطقة هادئة ولا يأتي إليها الكثير من الزوار عادة، فوافقت على كلامها. بعد العشاء، جلسنا نُشاهد فيلمًا في التلفاز إلى أن غفت أمي على الأريكة، فأيقظتها لتذهب لغرفتها، وذهبت أيضًا لغرفتي.

كانت قد قاربت الساعة على منتصف الليل، حاولت النوم، ولكن صوت الرياح بالخارج لم يجعلني قادرة على النوم، وما هي إلا لحظات حتى سمعت عزفًا للكمان من جَديد. فذهبت إلى الشُرفة لأجد خيالًا لشخص جالس تحت شجرة وكانت شرفتي في الطابق الأول، فإذا ما رفع المار بالطريق رأسه قليلًا فبإمكانه أن يجدني واقفة بالشُرفة، كنت أهم بالدخول، فلم أعد أهتم لمعرفة من هذا الشخص، فأنا في غنى عن مشكلة تحدث لي بسببه، ولكن قدمي اصطدمت في واحدة من أصص الورود، فوقعت وانكسرت، كنت أحاول جمع ما سقط على الأرض، وما هي إلا لحظات حتى وجدت ذلك الشخص واقفًا أمامي ويحدق فيّ مبتسمًا ويقول:

- هل تريدين مساعدة يا آنستي؟

فكانت الكلمات تنسال من بين شفتيه في سهولة، فجفلت ووقعت على الأرض. وكانت المرة الأولى التي أراه فيها بهذا القُرب، فقد كان شابًّا طويلًا رفيع القامة له شعر أسود طويل نسبيًّا وأعين زرقاء ووجه شديد البياض، ولكن زيه غير متناسق وكأنه كان على عجلة من أمره، فارتدى ما يقع في طريقه دون أن يُبدي اهتمامًا بالألوان. كنت أعتقد أن الموسيقيين عمومًا يهتمون كثيرًا باختيار أزيائهم، ظللت هائمة مع أفكاري حتى استفقت على صوته ثانية يسألني:

- هل أنتِ بخير يا آنستي؟
- فأجبته: نعم، أنا بخير، لقد انزلقت قدماي، ولكني بخير تمامًا.

فنهضت من مكاني، ولكنه ظل واقفًا يحدق بي ثم سألني:

- هل أعجبكِ عزفي يا آنستي لليوم؟

فترددت ثم قلت له: لا بأس به، ولكن ما اسم هذه المقطوعة فلم أسمعها من قبل هل هي لعازف مشهور؟

فابتسم وقال: إنها من تأليفي، ولكني لم أنتهِ منها بعد، سأدعوها (الحلم).

ووجدتها فرصة مناسبة لسؤاله عما يدور بنفسي من حالة البيت المجاور، فسألته: هل تقيم بالمنزل المجاور؟

فأجاب بعينين زائغتين: نعم.

فقلت: ولكني ذهبت صباح اليوم ولم أجد أحدًا بالمنزل، فقد كان يبدو مهجورًا تمامًا، وكان باب البيت مفتوحًا، كيف تسكن بمنزل مهجور؟ تساءلت..

فتردد ثم ابتسم لي وقال: لقد تأخر الوقت يا آنستي، ويبدو أنكِ مُتعَبة، ربما أراكِ بالغد، وانطلق من أمامي مسرعًا، لم يعطني إجابة محددة ولم يسمح لي بأن أسأله عن أي شيء آخر.. عدت إلى غرفتي وحاولت النوم، ولكنه أبى أن يجافي عيوني، فظلت كثير من الأفكار تحيط بي حتى اقتربنا من موعد شروق الشمس، كان قد أصابني الإرهاق والتعب، فغفوت في نوم عميق ولم أشعر بشيء، وبعد أن انتصف النهار، استيقظت على صوت الهاتف؛ لأجد أمي تتصل بي.

مرحبًا حبيبتي، لقد حاولت إيقاظكِ صباحًا، ولكنكِ كنتِ غارقة بالنوم، يبدو أنكِ تأخرتِ بالسهر ليلة البارحة.

فرددت قائلة: مرحبًا أمي، آسفة لتعبكِ لقد سهرت بالفعل ليلة البارحة ولم أستيقظ إلا الآن، سأكون بانتظارك مساءً. أُحبكِ..

فردت أمي: حسنًا حبيبتي، إلى اللقاء.

أقفلت الهاتف وحاولت أن أقوم من السرير، ولكني أحسست بوجع بكافة أوصالي وكأني كنت أمارس الرياضة لساعات طويلة، ذهبت إلى الشُرفة؛ لاستنشق بعض الهواء، ولكني فوجئت بإصيص الورد المكسور موجود بمكانه ويبدو سليمًا، كنت أشعر بحالة من الدهشة، ما هذا؟ هل كنت أحلم ليلة أمس؟ لم يكن هناك أثر لأي فخار مكسور ولا أثر لأي رماد، أقفلت باب الشرفة وذهبت للاستحمام ثم نزلت الطابق الأرضي لتناول الفطور. كانت أمي تترك البيت كل يوم مرتبًا على نحو غريب وكأننا سنستقبل ضيوفًا ما.

فتساءلت: ترى هل رأت إصيص الورد وقامت بتغييره بواحد آخر؟ ربما سأسألها حينما تعود، ظللت أحدق في الجدران طوال فترة

تناولي للإفطار، فقد كان منزلنا ذا جدران بيضاء ويمتلك الكثير من النوافذ الزجاجية، فكان الضوء الطبيعي يحيط بالمنزل طوال اليوم، فنُشهِد كلًّا من الشروق والغروب على حدى، ولكن اليوم كان مختلفًا، فهناك هدوء أكثر من اللازم حتى تكاد تسمع صوت إبرة الخياطة، إذا سقطت، ولكن رغم هذا الهدوء، فقد كنت أشعر أن هناك شيئًا ما يراقبني، وكأن هناك عينين تتوسط الشجيرات الصغيرة خارج نافذة المنزل، فكرت أن أطرد تلك الوساوس من مخيلتي. فأنهيت الطعام ووضبت المائدة ثم صعدت إلى غرفتي. ربما يمكنني أن أطَّلِع على مدونتي لحين عودة أمي من العمل، ربما أكتب شيئًا جديدًا، فلقد هجرتها لِمَ يزيد عن شهرين، ووجدتني أبدأ بعنوان ((البيت المهجور)) فوجدت نفسي أضحك، ترى هل سأتجه لكتابة قَصَص الرعب الآن؟ أعلم بأن حياتي مملة، ولكنها بالتأكيد لا ينقصها الرعب، ولكن رغم تفاؤلي الزائد، فإنني أحسست بشيء من الخوف يتسرب إلى داخلي، وبدأت أتساءل: ترى هل هناك قصة ما وراء ما يحدث؟ وهل يمكن أن يكون ذلك الشاب شبحًا ما؟ فالبيت مهجور منذ مدة ولم يأته أحد، ترى هل هذا الشاب مُتَوَفَّى وذلك الشبح له؟ ماذا إذا حاول إيذائي؟ أصابتني القشعريرة نوعًا ما وتركت العنوان على حاله ثم انتقلت لعدة صفحات على الإنترنت تتكلم عن موضوع الأشباح وكيفية طردها، فهناك الكثير من الدجالين اللذين يدعون بأن بإمكانهم التخلص من الأشباح بعد دفع الأجر المناسب، وهناك الكثير من الفيديوهات عن عمليات طرد الأرواح الشريرة وطرق التعامل معها.

مر الوقت سريعًا من فيديو لآخر ومن صفحة لأخرى ولم أنتبه للوقت إلا على صوت أمي تُنادي لي تُعلمني بوصولها. ذهبت إلى أمي بالمطبخ لمساعدتها في تحضير العشاء، وجلسنا إلى الطاولة وبدأت تحدثني عن كم القضايا الغريبة التي تصادفها بمكتب المحاماة، فهناك مَن قتل زوجته لشكه بأنها على علم بشخص آخر، لكنها كانت تراجع طبيبًا نفسيًّا؛ لتسأله عن كيفية التعامل مع زوجها المجنون، وهناك فتاة شابة قامت بطعن خطيبها بسكين؛ لأن أخرى قالت لها إنه على علاقة بفتاة أخرى، وأب حبس ابنته وعذَّبها؛ لأن هناك شخصًا من أقاربه شاهدها تتحدث إلى شاب غريب. كنت أستمع لأمي وأشعر بحالة من الذهول، فقلت لها: (حقًا يا أمي، لقد امتلأ العالم بالكثير من الجنون والشك)

وبعد إنهاء الطعام، جلسنا نشاهد التلفاز حتى غَلبنا النُعاس لبرهة ثم توجَّه كلٌّ منا لغرفته.

بعد منتصف الليل كالمعتاد، بدأت بسماع صوت الكمان من جديد، فقررت ألا أنهض من سريري اليوم، فإذا كان شبحًا، فلن يقدر على إيذائي حينها، ولكن في عالمنا هذا يبدو البشر مؤذين أكثر من الأشباح. بعد مرور نصف ساعة، كنت ما زلت أحدق بالسقف ولا أستطيع النوم، ففكرت ربما على شراء ورق حائط لسقف غرفتي على شكل الفضاء الشاسع بنجومه وأقماره، ربما حينها سيكون هناك ما يستحق النظر إليه بسقف غرفتي، فجأة سمعت صوت طرقات على نافذة الشُرفة وكأن هناك مَن يرمي بشيء صلب عليها، فنهضت من فراشي وتوجهت للشرفة؛ لأفتحها لأجد ذلك الشاب يقف أمامي ويُحَدِّق بي ويقول:

- مرحبًا آنستي، آسف إن أيقظتكِ، ظننت أنكِ مريضة اليوم؛ لهذا لم تأتِ للشرفة وكنت أريد أن أُسمعكِ جزءً جديدًا من مقطوعتي، كنت قد أنهيت تأليفه اليوم.

كنت أنظر إليه في استغراب وأتساءل: هل أصبحت صديقته الآن؟ ولكنه لا يبدو لي شبحًا، فملامحه ثابتة لا تتغير وزيه أيضًا لم يتغير، فهو نفس الزي الذي رأيته به في اليوم السابق. ولا يملك تلك الأعين الحمراء أو السوداء الجاحظة يبدو مثل أي شخص طبيعي، ولكنه ليس هنا أو هناك. فأجبته بابتسامة حذرة فلتسمعني ما لديك، ولكني لم أعرف اسمك بعد.

فأجابني مبتسمًا: أُدعى آدم وأنتِ سارة، أليس كذلك؟ فتساءلت: كيف عرف اسمي؟ ولكن يبدو أنه ليس الشيء الوحيد الذي يعرفه عني، فيبدو لي كغريبًا، ولكنه ليس كذلك. فابتسمت له وأخبرته أن يبدأ العزف. كنت أشعر أثناء عزفه بشيء غريب وكأن صوت الموسيقى سمعته من قبل، ربما في حلم لي كانت المقطوعة رائعة بالفعل، جعلتني أهيم بخيالي وأعود إلى مرحلة طفولتي، ولكنني لا أتذكر ذلك الشيء الذي أريد تذكره وكأن هناك فجوة بذاكرتي، فجأة بدأت تنتابني عدة مشاعر مختلطة لا أدري أهي خوف أم قلق أم غضب أم حنين أم اشتياق؟ وكأن هناك شيئًا مفقودًا وأبحث عنه، ولكني لا أدري ما هو؟ مرت ساعة وأنا أستمع لعزفه، لم أشعر بأن الوقت مر بهذه السرعة، فتوقف مبتسمًا، ثم قال: يكفي لليوم.

ثم أشار لإصيص الورد وقال: يبدو أنكِ تحبين زهور الكاميليا مثلي.

فقلت له: هل أنت من غير إصيص الورد المكسور؟

فابتسم لي وقال: أراكِ بالغد..

ذهب من أمامي مسرعًا وتركني مع أسئلتي كالعادة. ولكني اليوم خلدت للنوم بسرعة عن كل الليالي السابقة، ربما أحسست بشيء من الاطمئنان، فهو ليس شبحًا على أي حال. في الصباح، تناولت الإفطار كالعادة مع أمي، ووسط حديثنا، سألتها: هل علمتِ شيئًا يا أمي عن سكان ذلك البيت المجاور؟

فأجابت أمي: لقد نسيت تمامًا أن أخبرك، فالبارحة قابلت جارتنا التي تسكن في الجهة المقابلة بمحل المخبوزات وسألتها عن جيراننا، فقد كانت جارتنا تلك على علاقة وطيدة بجارتنا من المنزل المجاور وأخبرتني أن الرجل والمرأة كانا يعملان خارج البلاد وكان لديهم ولد واحد، ولكن أثناء عودتهم لبيتهم على مَتْن طائرة ما، وقعت الطائرة في حادث مأساوي وتظن أنه لم ينجُ منهم أحد، ارتسمت على وجهي نظرة رعب، وتساءلت في نفسي: إذا كان قد مات فعلًا، فمَن ذلك الذي أتحدث معه. هل جُننت حقًا؟

نظرت أمي متسائلة ويبدو على ملامحها القلق: هل أنتِ بخير يا حبيبتي؟ هل تشكين ألمًا ما؟

فأجبتها: لا شيء يا أمي. أنا بخير ولكني متوعكة منذ الصباح، يبدو أنني أصبت بنزلة برد، لا تقلقي، سأكون بخير..

فردت أمي: كيف لا أقلق يا عزيزتي وأنتِ كل ما أملك، ربما على أن آخذ اليوم إجازة من العمل لكي أبقى إلى جوارك. سأتصل بهم في المكتب؛ لأُعلمهم.

لم أستطع إقناع أمي بالعدول عن رأيها والذهاب للعمل وبقيت معي بالمنزل طوال اليوم؛ لتطمئن علي، ولكني لم أستطع إخبارها

بِمَ يدور بداخل عقلي، ظلت بجواري طوال اليوم وظللت أنا مع أفكاري حتى ارتفعت حرارة جسدي، يبدو أن الفيروسات ليست وحدها القادرة على إصابتنا بالإعياء، فالتفكير أحيانًا يكون كالسموم التي تتسرب إلى الجسد لتصيبه بمرض أشد من المرض المعتاد.. لاحظت أمي تغيُّر ملامح وجهي والرعشة والتعرق اللذين أصابا كامل جسدي، فأسرعت إلى الهاتف لاستدعاء الطبيب.

وبعد حوالي ساعة، حضر الطبيب وقام بالكشف عليّ وقام بوصف بعض الأدوية لي من مضادات الالتهاب والمسكنات ثم انصرف. فتركتني أمي وذهبت لأقرب صيدلية لإحضار الدواء. وطوال اليوم، لم أشعر بأي شيء يدور حولي، فقد كنت في حالة تُشبِه الإغماء. ولكني كنت أفتح عينيَّ من وقت لآخر وأنا طريحة الفراش لا ألحظ غير أعين ذلك الشاب تُحدِق في وكأنه ينظر إليّ..

في المساء، كانت حرارتي قد انخفضت، فطلبت من أمي أن تذهب لغرفتها لكي تستريح وأكدت لها أني صرت بخير وأني سأخلد إلى النوم. كنت أشعر بتعب جعلني غير قادرة على الوقوف على قدمي، ولكني شعرت ببعض البرد مع ذلك، ربما تُعاودني الحمى مرة أخرى، قمت إلى خزانة ملابسي لاستبدال ثيابي وأردت أن أستنشق بعض الهواء الرطب، فكامل غرفتي أصبحت لها رائحة الدواء، فتوجهت بعدها إلى الشرفة؛ لأستنشق بعض الهواء ما لبست لحظات حتى وجدت ذلك الشاب يقف أمامي؛ ليسألني: هل أنتِ بخير؟

لم أستطع عندها الوقوف على قدمي والنظر إليه من شدة خوفي، فأُغمِي علي.. ظلام في ظلام لم أدرِ كم مر من الوقت وأنا على هذه الحالة، ففتحت عينيّ لأجد نفسي مستلقية على الفراش وذلك

الشاب يجلس إلى جواري. كنت سأهم بالصراخ، لكنه أسرع ووضع يده على فمي، عندها، شعرت بذلك الدفء في يديه ولاحظت شيئًا من التورُّد بوجنتيه، فلم يكن شبحًا بالنسبة لي، وربما ما زلت أتخيل. ثم قال لي في همس:

- لا تخافي، فأنا لن أؤذيك. أنا بشر مثلك تمامًا ولن أؤذيك.

كنت في حالة من الهلع وبدأت أُجبر نفسي على الهدوء، فرجع للحديث معي مرة أخرى: هل أنتِ بخير الآن؟ لقد شعرت بالقلق عليكِ كثيرًا، عندما جاء الطبيب، وعندما أُغمي عليكِ خفت أن تكوني قد فارقتِ الحياة يا سارة وتركتيني للأبد. هل أنتِ بخير الآن؟

بدأت أفكر ما الذي يحدث بالضبط؟ لماذا يُحَدِّثني وكأنه يعرفني، وجدت أنها الفرصة المناسبة لسؤاله عن كل ما يدور في عقلي. فمن هو؟ وكيف يعرفني؟ وماذا يفعل هنا؟

فبدأت بسؤالي الأول له: هل تعرفني؟ قل لي من أنت حقًا؟ هل أنت شبح؟

فنظر لي ثم ضحك وقال: هل تصدقين حقًّا يا سارة بأني شبح؟ يبدو أنكِ نسيتِ كل شيء عني. ألم يكن أنتِ من وعدَتني ذلك اليوم بأنها ستتذكرني للأبد ولن تنساني؟ ماذا حدث لذلك الوعد؟ ألا تذكري آدم أبدًا

فأجبته: في الحقيقة، لا أتذكر من أنت؟ ولا كيف أعرفك؟

فأجابني: لقد كنت جارِكِ في المنزل المهجور المجاوِر لكم عدة سنوات، وكنتِ أنتِ وأنا نتشارك اللعب في حديقة المنزل الخلفية وكنا نُصِرّ على أن تكون صداقتنا سرًّا حتى لا يُفسدها الآخرون. أنتِ من أخبرتني سابقًا يا سارة بأنكِ كلما صادقتِ فتاة في المدرسة

وشاهدتِ فتاة أخرى تعاملكِ بلطف معها، كانت تُفسد ما بينكِ وبين صديقتكِ، فلقد كنتِ دائمًا مختلفة يا سارة عن باقي الفتيات؛ لذلك كانوا يتجنبونكِ طوال الوقت، ربما لأنه كان لكِ خيال لا يستطيع أحد سجنه أبدًا. فقد كنتِ مثل والدكِ تؤلفين القَصَص دائمًا وترويها لي وكنت أستمع إليكِ جيدًا ونعيد تمثيل القصة معًا.

وما أن ذكر سيرة والدي حتى بدأت الدموع تنهمر على وجنتيّ، ولم أعد أستطيع السيطرة على نفسي.

فما كان من آدم إلا أن بدأ بتجفيف دموعي واحتضنني بقوة وهو يقول: أعلم أن فقدانكِ لوالدكِ لم يكن سهلًا عليكِ، فلقد كان شخصًا رائعًا بكل المقاييس، وسنظل نتذكره دائمًا.

شعرت للحظة بأني أريده أن يحتضنني لساعات، فقد كنت نسيت هذا الشعور، فقد كان أبي يحتضنني، كلما عاد من العمل ونجلس ونتكلم لساعات عن قصصه الجديدة، ولكني ما زلت لا أعلم من هو آدم؟ فانفلتُّ من بين أحضانه سريعًا لأسأله.

لقد سمعت من جارتنا أن هناك حادثًا ما حدث لعائلتك، فكيف نجوت منه؟ فليس هناك أحد على ما يبدو يعلم أنك ما زلت حيًا غيري.

تنفَّس آدم بقوة ثم أخبرني في حزن: كنت قد اشتقت إليكِ كثيرًا، وكنتُ انتهيت من مرحلة التعليم الثانوي وأصريت على والدي أن أعود إلى القاهرة؛ لأُكمل تعليمي الجامعي، ولكي أرافقكِ كما اعتدنا الذهاب معًا لكل الأماكن، ولكن أثناء عودتنا، سقطت الطائرة التي كنا على متنها، ولكني للأسف فقدت أبي وأمي على

الفور، ولحكمة ما، بقيت على قيد الحياة ثم نُقلت حينها إلى المشفى وكنت أعاني جروحًا بالغة وفقدانًا مؤقتًا للذاكرة، فيبدو أن الصدمة جعلتني أنسى بعض الأشياء وقد كنت أطمئن على أخبارِكِ من والدكِ وأبعث لكِ رسائل دائمًا وكنتِ تجيبين على رسائلي حتى وقت الحادث، ولكن بعد الحادث، تغيَّر كل شيء، فلم أتذكر الكثير عن نفسي أو والدي أو عنكِ أنتِ، أريد أن أعتذر منكِ الآن يا سارة، فلا بد أنكِ قد انتظرتيني طويلًا بعد أن أعلمتكِ بموعد قدوم رحلتي، ولكني أخلفت الوعد.

فأجبته بابتسامة قلقة: لا تحزن كثيرًا يا آدم، فيبدو ولسبب ما أني لا أتذكرك بالمرة.

فرد آدم: هل أحزنتكِ لتلك الدرجة حتى لا تذكري أي شيء عني..

فأجبته: لا أعلم حقًّا يا آدم، بدأت آشعة الشمس تتخلل الغرفة، يبدو أن الوقت سرقنا، فقد أتى الصباح وما زلنا نتحدث.

فقلت له: آدم أرجو أن تتركني الآن وتذهب، فأمي على وشك الاستيقاظ، ولا أريد أن ترى رجلًا غريبًا بغرفتي في مثل هذا الوقت، ربما تُصاب بالذُعر.

فضحك قائلًا: رجلًا غريبًا، حسنًا يا آنستي، سأتركِكِ الآن وأراكِ بالمساء. وداعًا.

مرت حوالي نصف ساعة وأنا جالسة بفراشي، لم أتحرك، وجاءت أمي؛ لتتفقدني. هل استيقظتِ يا حبيبتي؟ كيف حالكِ الآن؟

فأجبتها مبتسمة: أنا بخير يا أمي، لا تقلقي عليَّ، ولكني تذكرت شيئًا وأردت سؤالكِ عنه.

فردت مبتسمة: طبعًا حبيبتي، ما سؤالكِ؟

هل تعرفي آدم ابن جارنا؟ وهل كنت حقًّا أقضي أغلب الوقت معه في صغري؟

نظرت لي أمي في دهشة: هل تذكرتِ آدم حقًّا؟ لقد اعتقدت أنكِ نسيتيه، بعد ما وقع لكِ بعد وفاة والدكِ.

فتساءلت في دهشة: ما الذي وقع لي؟ وما الذي نسيتُه؟

فقالت أمي: أذكر أن آدم كان قد أعلمكِ بموعد وصوله وظللتِ تنتظريه طوال أسبوع كامل، وكان يبعث لكِ برسائل دائمًا وكنتِ تحتفظين بها في صندوق، ولكننا ظننا وقتها أنا ووالدكِ بأنه قد صرف نظره عن العودة، ولم نعلم بحادثتهم؛ لذلك كنا نخفف عنكِ طوال الوقت، ونحاول أن نشغلكِ كثيرًا عن انتظاره بأشياء أخرى ولم يمر أسبوع إلا ووقعت الحادثة لوالدكِ وتُوُفِي. وعندها، لم تكُني قادرة على الحديث حتى معي، ومرَّت فترة أسبوع ثم في أحد الأيام، وجدتكِ فاقدة للوعي بغرفة المكتب الخاصة بوالدكِ. وعندها، قمت بنقلكِ للمشفى.

وقال الطبيب لي: ((إنكِ قد أُصِبتِ بانهيار عصبي)) وطلب لكِ الراحة التامة وعدم الانفعال، عندها، أغلقت غرفة المكتب الخاصة بوالدكِ، وأخفيت رسائل آدم حتى لا يعاودكِ الحزن مرة أخرى، ولكنكِ ظللتِ بالمشفى طوال شهرين إلى أن بدأتِ تعودين لحالتكِ الطبيعية، وعندما عدتِ للمنزل مرة أخرى، لم تسألي عن والدكِ أو آدم، وكنت أتصور أنكِ لا تريدي الحديث عنهما لكي لا يعاودكِ الحزن، ولكن بعد فترة، اتضح لي أنكِ لم تتذكري الكثير من الأشياء. فعاودت الطبيب؛ لأطمئن منه على حالتكِ، ولكنه

أخبرني أن هذا من فعل الصدمة وأنكِ ستتذكرين مع الوقت، ومر عامان، ولكنكِ لم تتذكري شيئًا.

- أمي هل تلك الرسائل التي كانت تصلني من آدم ما زالت موجودة؟

فأجابتني: نعم عزيزتي، سأُحضرها إليكِ.. غابت أمي لبعض الوقت ثم عادت وهي تحمل صندوقًا صغيرًا مزخرفًا بالورود..

وقالت: تفضلي يا حبيبتي، تلك كل الرسائل، هل ستكوني بخير؟ يجب أن أذهب للعمل، فلديّ قضية مهمة بالمحكمة اليوم. هل بإمكاني أن أتركك وحدكِ؟

ابتسمت وأجبتها: لا تقلقي يا أمي، سأكون بخير، صَحَبتكِ السلامة.

ودعتني أمي، وجلست أقلب بين الرسائل، بعضها كان بخط غير مفهوم وحروف مائلة تُوحي بأننا كنا طفلين حينها، ومعظمها رسائل مضحكة بينها أخبار متفرقة عنه وعني، وأخرى عندما كبرنا بالعمر قليلًا، تمتلئ بذكريات لأماكن وكتب وحكايات بعضها حقيقي وآخرى مختلقة، ولكن آخر رسالة هي ما تختلف عنهم جميعًا، ففيها بعض مشاعر الحب التي تختبئ بين الأسطر وأبيات شعر تحمل الكثير من الوعود والآمال بالالتقاء والبقاء معًا لآخر العمر.

بعد أن انتهيت من قراءة الرسائل، بدأت في سؤال نفسي: ترى هل يمكن نسيان الحب من بين كل المشاعر الإنسانية التي تخالطنا؟ أم أننا ندعي نسيان ذلك الحب في حالة إذا ما تألمنا منه..

في المساء، عادت أمي للمنزل وجلسنا إلى المائدة لتناول العشاء وتحدثنا كثيرًا عن أبي ورحلاتنا معه وعن الذكريات وضحكنا كثيرًا، وكأن هناك شخصًا ثالثًا يشاركنا هذا العشاء ويبتسم لنا، وكأن

والدي لم يرحل، وظل على قيد الحياة إلى يومنا هذا. كم افتقدت تلك الضحكات لعامين وافتقدتك أيضًا يا أبي..

وعندما جاء منتصف الليل، ذهبت للشرفة أنتظر آدم وأنا أحمل صندوق الرسائل معي، وبعد دقائق، جاء آدم يحمل الكمان كالعادة ويبتسم لي، وسألني:

- هل تذكرتيني الآن؟

فأجبته: ما زالت ذاكرتي مُشَوَّشة، ولكني أحاول وقد قرأت كل الرسائل التي بعثتها لي..

وبدأ يحكي لي آدم باقي قصته، فبعد تماثله للشفاء، ذهب إلى بيت عمه وقضى معه الكثير من الوقت، لكن ذلك لم يساعده في استعادة ذاكرته. فقرر أن يأتي للبيت لكي يراه ويبحث بين محتويات منزله، لعله يسهل عليه مهمة إيجاد ذلك الجزء المفقود من ذاكرته، وبدأ في تذكر الأشياء مع مرور الوقت وحبه للعزف على كمان والده، وبأنه كان سيدرس الموسيقى عند عودته من الخارج ووجد بعضًا من صورنا معًا ونحن صغار، ولكنه لم يتذكرني إلى أن رآني ذات ليلة واقفة في شرفة منزلي وتذكَّر بأنه رأى صورتي من قبل، بعد الحادث، فقد كنت أرسلت له صورة لي، كنت قد أخذتها قبل عودته من السفر بعدة أيام وأرفقتها برسالتي البريدية، وكان يحتفظ بالصورة في جيب قميصه أثناء وقوع الحادث، فبدأ يبحث عني أكثر حتى تذكرني ذات ليلة، يقول إنني زرته في حلم وكلمته طويلًا، فعادت له ذاكرته من جَديد. وسألته عما إذا كان هناك أشياء أخرى غير الرسائل عني، فظل يحكي طوال الليل عن ذكرياتنا معًا، عندما كنا أطفالًا ما بين مواقف مضحكة أحيانًا

ومحزنة أحيانًا أخرى، كنت أنظر إلى آدم، وأتساءل: ترى هل يمكن أن أنسى شخصًا يحبني بهذه الدرجة، أم أنني وجدت الأمان في نسيانه حتى لا أتألم بعد عدم عودته من الخارج.

بعد أن أوشك الفجر على المجيء، طلبت منه أن نذهب إلى عدة أماكن كان حكى لي عنها حتى أستطيع تذكر كل ما مر بنا معًا، فوافقني على طلبي. وسألته: أين يبيت؟

فأجابني: أحيانًا بالمنزل وأحيانًا أذهب لمنزل عمي. ولكن عمي غالبًا ما يلح عليَّ بأن أبقى معه وكان يريد مني أن أتقدم للالتحاق بالدراسة هذه السنة، ولكني أخبرته بأني ما زلت أحتاج إلى بعض الوقت، فلم أتحسن بعد، ولكن بعد أن رأيتكِ تستمعي لي تلك الليلة، تذكرت الكثير، وأريد أن أمضي قدمًا بحياتي، فقد كانت متوقفة لعامين كاملين.

فقلت له: سيكون من الأفضل لك آدم وبإمكاني الذهاب معك لمعهد الموسيقى العربية للاستعلام عن مواعيد التقدم للدراسة والأوراق المطلوبة، ويجب أيضًا أن تهتم بمنزلك، فلن يبقى مهجورًا هكذا للأبد، بإمكاني الاتصال بشركة للخدمات المنزلية؛ ليتم الاعتناء به.

فأجابني بالموافقة وتواعدنا على اللقاء، ظهر اليوم للبحث عن ذاكرتي المفقودة، وطلبت منه بعض الصور لنا معًا ونحن صغار ربما تذكرت شيئًا. ودعته وذهبت للنوم، ولكن الكثير من الصور بدأت بالظهور لي بحُلمي، أغلبها عن فتى وفتاة صغيرين يلعبان معًا أو يتسلقان شجرة ما وشعرت أني نمت أعوامًا وليس مجرد عدة ساعات وكأن حديثي مع آدم وقراءة الرسائل قد أعادت لي سيلًا من

الذكريات، عندما استيقظت، شعرت بثقل في رأسي وكأني صدمت رأسي بشيء ما، ولكن رغم ذلك، شعرت بالسعادة؛ لأن هذا الحب كان موجودًا بحياتي حقًّا، ولم يكن مجرد خيال.

عند الظهيرة، التقيت بآدم كما اتفقنا وذهبنا معًا لأكثر من مكان وبدأت الكثير من الأشياء تعود لطبيعتها داخل عقلي، فقد كنت أشعر من قبل بحالة من الضياع والتشتت، والأهم من ذلك أن البسمة عادت لوجهي مرة أخرى.

مرت الأيام ونحن نحاول ترتيب حياتنا ووصل كل النقاط المفقودة، وذات صباح، اتصل بي آدم وطلب مني الذهاب إلى منزله وفعلت.

وعند وصولي إلى باب منزله، وجدت الباب مفتوحًا، فدخلت ثم وجدته صنع عدة أسهم على جدران المنزل وأرضيته. في البداية، ناديت عليه، ولكنه لم يُجِب ثم تبعت تلك الأسهم حتى وصلت إلى حديقة منزله الخلفية، المكان الذي لطالما قضينا فيه ساعات طويلة يوميًّا ما بين لعب وبين حكاية القَصَص وتمثيلها وبين زرع الزهور..

فوجدت طاولة موضوع عليها لاقطة أحلام من الخرز المُلَوَّن وقصاصة من الورق مكتوب عليها ((تذكرين عندما كنت أخاف النوم ليلًا فصنعتِ لي تلك اللاقطة؛ لأرى الأحلام الجميلة فقط))

فتبسمت وقلت: نعم، أذكر ذلك..

فوجدته يقف أمامي وبيده خاتم ويقول لي: لا أريد أن أنسى مجددًا، وأريدكِ أن تكوني حلمي الجميل الذي لا أستيقظ منه إلى الأبد، فلتكُني لي...

فابتسمت وقلت له: وأنا أيضًا أريدك أن تكون حلمي الجميل للأبد وألا تنساني مجددًا.

فتعانقنا وتواعدنا على البقاء معًا للأبد.....

يوم هادئ

بأربعة جدران زرقاء كصفاء السماء بصباح شتاءٍ دافئ صار منزلي، أستيقظ في الصباح الباكر مع أول شروق للشمس. أتوجه للشرفة؛ لأتنفس هواء الصباح المُعَطَّر برائحة زهور الريحان التي تزرعها جدتي وأدع الشمس تُداعِب وجنتيَّ حتى تمتص روحي دفء الشمس وليس وجهي فقط. أُراقب الجيران وهم ذاهبون إلى حقولهم في الصباح الباكر يملؤهم النشاط ويجرون دوابهم خلفهم، وما أن تمر دقائق قليلة حتى تدب الحياة بكافة الدار، فهذه جدتي تصنع فطائرها الشهية من الطحين، وها هو خالي يستعد للذهاب للعمل وأبناء خالي الصغار يصيحون ويركضون خلف بعضهم في شجار منهم على مَن يسبق الآخر، وزوجة خالي تحيني مبتسمة وتتساءل:

ترى هل نمتِ جيدًا ليلة البارحة؟

فأجيبها بإيماءة وابتسامة: نعم نمت جيدًا، حقيقة لم أحظَ بهذا النوم الهادئ والطويل منذ وقت طويل.

فتجيب لم ترَ شيئًا بعد، فالجو بالريف عامة له أثر جيد على وجه المرء وراحة باله، لا بد أنكِ تتضورين جوعًا سأعد مع جدتكِ إفطارًا شهيًّا لكِ بمجرد أن تُنهي وضوءكِ وصلاتكِ. سننتظركِ في غرفة الجلوس.

- حسنًا سآتي سريعًا، فقد بدأت شم رائحة فطائر جدتي الشهية. بعد الإفطار، أحسست بامتلاء،

وكنت أرغب بالذهاب للحقول المحيطة بالبيت للتمشية، فأنا منذ فترة طويلة، أحلم بتنفس ذلك الهواء النقي والاستماع لزقزقة العصافير وهي تروح وتغدو بين أغصان الشجر؛ لتبدأ عملها لجني الرزق منذ الصباح الباكر كما أشتاق أيضًا لأشعة الشمس الدافئة تخترق ما بداخلي؛ لتُنهي برودة ذلك الشتاء الطويل الذي عشت به، وتُمحي كل جفاء قابلته في حبي لذلك الشخص.

خرجت من البيت بعد أن ارتديت فستانًا أبيض منقوشًا بزهور ربيعية صغيرة ووضعت على رأسي حجابًا كما تفعل سيدات القرية حتى لا يحسبنني غريبة عنهم، فأنا لم أذهب لبلدتي منذ أشهر طويلة.

وكل ما أقضيه بها ليس سوى أيام، فليس هناك الكثيرات ممن يتذكرنني. وأثناء سيري وسط الحقول، لاحظت طيفًا لرجل يُشبِه ذلك الحب الذي تركني منذ مدة. ولكني لا أريد تذكره، فقد كان نسيانه أكثر إيلامًا، فكيف بتذكره من جديد. أُكمل المسير ليقابلني شخص آخر بتلك العيون المائلة للسواد وكأن أعين ذلك الحب تراقبني، أمر مسرعة لأجد أنفًا أو فمًّا أو تصفيفة شعر، فأجري لأَختبئ في ظل شجرة.

ما هذا؟ وماذا فعلت بنفسي؟ هل جئت هنا لكي أنساه حقًّا أم لكي أتذكره؟ وكيف أحفظ ملامحه لهذا الحد. ألم يكن أمامي شيء خلال فترة عملي معه سوى تأمل قسمات وجهه. أترك العنان لخيالي قليلًا. فأجد نفسي أرجع بالذاكرة لذلك اليوم كان صباحًا مزدحمًا كصباحات العمل عادة بمحافظة الجيزة ولم أكن أجد وسيلة انتقال للعمل، فتأخرت في وصولي وكان لديَّ اجتماع في هذا

الصباح مع روائي مشهور كانت دار النشر التي أعمل لديها حاولت جاهدة إقناعه للمشاركة معها لِمَ لرواياته من شهرة واسعة. في الحقيقة، لم أره من قبل، ولكني أعتقد أنه رجل يبلغ الخمسين من العمر أو ربما أكثر، فقد كانت رواياته مليئة بالنضج وكأنه جاب الكرة الأرضية في رحلة بحثه عن إلهام ما لبداية رواية جديدة.

لم أنتبه إلا وسائق التاكسي يُعلمني بالوصول لوجهتي، كيف مر الوقت بهذه السرعة. شكرت السائق ونزلت من التاكسي أهرول لألحق بالاجتماع على باب المصعد. كان هناك ذلك الشاب فارع الطول ذو وجه دائري وعينين يميلان للسواد وشعر أسود قصير يُغطي جبهته، تلاقت أعيننا، فرمقني بابتسامة سريعة وفتح باب المصعد وأشار لي بالصعود أولًا. سألني عن الطابق المتوجهه إليه فأجبته بالخامس فقال طريقنا واحد بابتسامة على وجهه فابتسمت بدوري وكان ذلك أول لقاء...

خرجنا من المصعد وتوجهنا لدار النشر معًا، فالتفتُّ إليه متسائلة: هل جئت حضرتك إلى هنا لنشر شيء ما؟

فابتسم لي وقاطعنا المدير بالحديث: أهلًا بك أستاذ هشام كامل تفضل، نحن في انتظارك.

سمعت بالاسم وأصابني شيء من الذهول. هل هو حقًّا الروائي المشهور الذي قرأت له مسودة رواية منذ ليلتين؟ يبدو قريبًا مني في العمر، متى اكتسب كل تلك الخبرة؟ لا بد أنه كثير السفر والترحال. تبعت المدير والروائي لغرفة الاجتماعات وجلسنا. فبدأ المدير بالكلام، فقد كان رجلًا في أواخر الخمسينات من العمر، وفي الحقيقة، هو صديق لوالدي وبعد تخرجي في الجامعة، عرض عليَّ

العمل معه. كنت أراه دائمًا ذلك الشخص الطيب صديق العائلة يعاملني كابنته، ودائمًا ما يوجه النصح لي في كيفية إنجاز عملي على أكمل وجه، فلم يكن يرضى بأقل من ذلك. كنت أتململ قليلًا من نصحه المستمر، ولكني ألتمس له الأعذار، فمن المؤكد أنه يهتم لأجلي. بدأنا الحديث مع الروائي وأخبرنا مقدمة عن نفسه بدراسته بكلية الإعلام وعشقه للتصوير وسفره للخارج لعدة دول أوربية وعربية. وشعوره أن كل صورة من صوره وراءها حكاية ستُثير القراء؛ لذا أحب أن يشاركها معهم. في الحقيقة، كانت روايته تتحدث عن كل أوجه المشاعر، كما كانت تُخبرني صديقتي أمل، فقد قرأت كل رواياته وكانت تنتظر روايته الجديدة بفارغ الصبر، ولكن عند ذكره للحب، كان يظهره كحادثة يمكن أن تُقَلِّب كل موازين الحكاية، ولكن يبقى تعامله مع تلك المشاعر بحذر. عندها، أدركت أن الحب الأبدي الذي نسمع عنه بالروايات وسهر الليل والشوق للمحبوب، كل تلك المشاعر لم تقابله خلال رحلاته من قبل. ربما يرى الحب ترفًا في زمننا هذا، أو ربما يعد قلبه هشًّا كالزجاج ولا يحتمل أن ينكسر لعشق أي فتاة. كثيرًا من الأفكار ظلت تراودني طوال الاجتماع، فكنت بعالم آخر وخاصة بعد أن قابلته وجهًا لوجه، فلم يكن أيًّا مما تصورته عن ملامحه وشخصه مطابقًا للصورة التي قابلته عليها.

انتبهت إلى صوت أستاذ تحسين مديري بالعمل. أحب أن أُعَرِّفك أستاذ هشام بآنسة ندى فهي تعمل مدققًا لُغَوِيًّا لدينا، وهي المسؤولة حاليًا عن مراجعة روايتك، فإذا ما كان لديك أي ملاحظات، يمكن أن تُخبرها بها.

أجاب بابتسامة موافقًا وتوجَّه لي بالكلام: أرجو أن تلقى روايتي عنايتكِ يا أستاذة ندى.

فأجبته بابتسامة فاترة: طبعًا أستاذ هشام، فأنا أهتم بكل الأعمال الروائية بشكل جيد.

فرد: بالطبع، ولكن هذه الرواية لها مكانة خاصة لديَّ، فأرجو أن نتعاون بشكل جيد.

انتهى اللقاء على اتفاقنا بالمقابلة بعد أسبوعين؛ لأعطيه ملاحظاتي على الرواية، بعدما قَدَّم لي النص كاملًا واستمعت لملاحظاته أيضًا.

توجهت لمكتبي وجلست طوال اليوم وأنا لا أجد شيئًا يشغل بالي سوى تلك المقابلة وطيف ذلك الشخص الذي ظل يرافقني طوال اليوم.

في المساء، ذهبت للمنزل وتحدثت لأمل على الهاتف؛ لأخبرها بلقائي بالكاتب، وكانت متحمسة جدًّا لمعرفة المزيد، فهي معجبة بكتاباته بدرجة كبيرة لدرجة تجعلها تعتقد بحبها للكاتب نفسه، وطلبت لقاءً معها؛ لتحكي لي أكثر عن رواياته وتُحضِر لي بعضها لكي أَطَّلع عليها، ربما حُب البشر لمعرفة كل شيء مجهول هو ما يدفعني لذلك التصرف، فدائمًا ما يثيرنا الغموض الذي يحيط بالأشخاص.

في صباح اليوم التالي، ذهبت للعمل كالمعتاد، وانشغلت بعدة مشروعات لكُتَّاب آخرين كان عليَّ مراجعتها؛ لكي أُنجِز بعض الأعمال قبل انشغالي بروايات هشام كامل، فهي مهمة جديدة يبدو ستأخذ الكثير من وقتي إلى أن حان وقت انتهاء العمل. اتصلت بأمل صديقتي وطلبت مقابلتها لمناقشتها في روايات هشام كامل

وقابلتها بمطعم ما يطل على النيل بحي الزمالك، بدأنا اللقاء بالسلام والعناق والحديث عن أصدقاء الجامعة كالمعتاد وحكت لي القليل عن الروايات وسلمتني بعضها. شكرتها على مساعدتها لي ثم انطلقت عائدة إلى بيتي، وفي أثناء جلوسي بالتاكسي، امتدت يدي لإحدى رواياته، كان الغلاف مُزَيَّنًا بصورة لامرأة شاردة ويبدو على ملامحها الخوف وخلف المرأة توجد مرآة بها ظل لكائن ضخم شاحب، بدأت في تصفح الرواية، فإذا بها تحكي عن امرأة جميلة في عِقدها الثالث تعمل بالخارج بولاية من ولايات أمريكا من أصل كندي، وتعرفت بذلك الشاب العربي الذي التقته مصادفة بأحد المقاهي المجاورة لمكان عملها؛ لتبدأ قصة تعارفهما من خلال الروايات والقهوة. ثم يبدأن في التقرب من بعضهما أكثر فأكثر إلى أن يحين.....

انتبهت على صوت سائق التاكسي يُخبرني بالوصول لوجهتي. نزلت من التاكسي وصعدت لشقتي مهرولة لكي أُنهي ما بدأته. فقد كنت أعيش بمفردي منذ مدة، فوالداي يعملان بالخارج، ولكنني أصررت على العمل بمصر بعد أن أنهيت دراستي، فلم تكن الغربة تستهويني. جلست إلى كرسي المكتب وبدأت في الاطلاع على باقي أحداث الرواية.... ما بين تعارف عادٍ بدأ بسبب عنوان رواية ما إلى حديث طويل فلقاء تلو لقاء وأفكار ومشاعر ربما متشابهة جعلت منهما يعتقدان بقدرة اجتماع المشرق بالمغرب تحت سقف واحد، وتمر الأيام والشهور في حالة من الحب الصافي والشغف الذي يُزَيّن كل شيء بالأعين إلى أن يفيقا صباح يوم على أحداث الحادي عشر من سبتمبر لعام ٢٠٠١ م ويتغير معه كل شيء لا الحب عاد حبًّا ولا

الشغف عاد شغفًا فمجرد هزة بأوضاع دولة ما، تصيب الطرفين بالصدمة، بالطبع هي ليست بالشيء العادي لأصحاب البلد، ولكن ذلك الحب الذي سيقف بوجه كل الصعاب تبخَّر بالهواء وكأنه لم يحدث يومًا وأصبح الشك والخوف هو فقط ما يرافقهم. وما بين أحداث الرواية التي يمكن توقعها في بعض الأحيان وما بين استغراق في القراءة والشرود مع أحداثها، لم أنتبه إلا وقد دقَّت الساعة مُنبئة بقدوم منتصف الليل. كان قد أصابني التعب والإرهاق تلك الليلة، فقررت الخلود إلى النوم. فنمت وما كنت بنائمة فكثير من الأحداث ظلت تُلاحقني خلال نومي وكأني كنت طرفًا بتلك القصة أو ربما صديقة لبطلتها.

في الصباح التالي وكالمعتاد ذهبت إلى عملي وما بين قراءتي لرواية الكاتب الجديدة وروايته القديمة وعملي بدار النشر وحديثي مع أمل لساعات على الهاتف حتى انقضت مدة الأسبوعين وحان لقاء الكاتب هشام، وقد بدأت في تكوين رؤية ما عن شخصيته من خلال قراءة كتاباته، فهو يميل للتنظيم في أفكاره وأشخاص حكاياته تنبض بالحياة وكأنه يترك جزءً من روحه بكل شخصية يكتب عنها، فهو انفعالي ويميل لوصف الأشياء والأماكن بدقة وكأنه يراها أمامه، ربما سبب ذلك كَثرة أسفاره كما علمت عنه. في الحقيقة، تحيرت كثيرًا في كيفية الحديث معه، فأنا ورغم بقائي لفترة بالخارج مع والدي، قصرت أو طالت، فهي لم تحمل ذلك الكم من التجارب. ومنذ عملي بدار النشر، أشعر أن عالمي أصبح أكثر انغلاقًا. ربما كنت أحتاج لمقابلة هذا الشخص؛ ليُخبرني أن

هناك عالمًا شاسعًا يقع خارج تلك الحدود والجدران التي حبست نفسي بداخلها منذ عودتي لوطني.
فقررت أن أجعل الكلام معه بسيطًا قدر المستطاع حتى لا يبين له قلة خبرتي بالحياة، ولنركز أكثر على موضوع روايته ومناقشة أفكارها وما يتعلق بها من تصحيحات وجدول النشر الخاص بها.
وفي يوم اللقاء وقبل عدة ساعات، استقبلت مكالمة هاتفية من هشام يخبرني بأنه يريد لقائي خارج دار النشر بأي مكان عام، فهو لا يحب جو الروتين المصاحب للمكاتب ويأمل ألا يضايقني ذلك وافقت على مضض. فأنا لم أقابل شابًا بمفردي منذ مدة، فكل مقابلاتي حتى للعمل كانت بالمكتب بوجود أستاذ تحسين. لم أكن أعلم أكان ذلك خوفًا مني أم أن شجاعتي تراجعت مع مرور الوقت حبيسة بين المكتب وأغلفة الروايات.
وفي نادٍ ما يقع على ضفاف النيل، كان اللقاء في البداية تحدثنا عن الرواية وتفصيلاتها وما سيتم فيها من تصحيحات. في الحقيقة، كان يتكلم معي بمنتهى السهولة، ووافق على معظم ملاحظاتي، لم يكن هناك أدنى مشكلة من جهة الرواية ثم بدأ الحديث ينقلنا لأماكن وأزمات أخرى أثناء احتسائنا للقهوة ما بين سفر لبلد ما ومناقشة سياسة ما ومنظر جمالي ما.. صرنا نتحدث وكأننا أصدقاء قُدامى فَرَّقَتهم عن بعضهم الدروب، ثم عادا للتلاقي من جَديد، وفي نهاية اللقاء، تبادلنا السلام ومعه شيء في داخلنا ربما جزء من الروح كالذي يتركه مع كل شخصية يكتب عنها بروايته وتواعدنا على اللقاء ثانية لاستكمال بعض الملاحظات على روايته الجديدة، ولكنه سيكون بدار النشر تلك المرة. وتوالت لقاءاتنا إلى

أن انتهت الرواية وأُعِدَّت للنشر وتلاها حفل توقيع بأكثر من مكتبة ومعرض للكتاب، ولاقت نجاحًا كبيرًا يفوق سابقتها. وأثناء كل ذلك، صارت لقاءاتنا أكثر وأكثر نتحدث بكل شيء ونزور مُختَلَف الأماكن، وكنت كمن يرى مصر لأول مرة. وذهبنا معًا لعدة فعاليات ثقافية من عرض لمسرحيات ومعارض لفنانين تشكيليين وزيارة لأماكن أثرية وحفلات موسيقية بدار الأوبرا. وفي أثناء كل ذلك تجلى شيء متوهج بداخل قلوبنا، لم يكن شيئًا كما يُكتب عنه بالروايات، ولكنه حب من نوع آخر مبنٍ على التفاهم والاحترام المُتَبادَل وتقارب في الآراء، وما زلنا سابحين في تلك النشوة التي تُدعى بالحب فترة من الزمن حتى استيقظت في صباح يوم من الأيام يُخبرني فيه أنه كان يُجَهّز لرحلة منذ فترة لشمال أوربا، وإذا كان بإمكاني الذهاب معه.

تساءلت أي مشاعر شعرت بها الفترة الماضية. هل من يخبرني بسفره الآن هو حقًّا ذلك الشخص الذي قضيت معه الأشهر الماضية؟ هل لم يجد ولو خمس دقائق يخبرني فيها بسفره للخارج؟ هل كنت أحلم؟

حاولت أن أستجمع قواي لأقول أي شيء، مرت أكثر من خمس دقائق وأنا أستمع لِمَ يقول واستفقت على ندائه. ندى: هل ما زلتِ معي على الهاتف؟

أجبته في تردد: نعم، ولكن عندي عمل مهم بدار النشر، ولا أستطيع السفر معك.

فأجابني بكل هدوء: لقد كنت أتمنى موافقتكِ حقًا. فقد أخبرتيني منذ مدة أنكِ تتمني لو تسافرين معي في رحلة طويلة، ولكنكِ ترفضين الآن..

فأجبته: نعم أتذكر قولي لذلك، ولكن على أي أساس أسافر معك، فلست زوجتك ولا خطيبتك..!!

فأجابني: حقًا ندى أتفكرين بتلك الطريقة؟ لقد كنت أعتقد أنكِ أكبر من ذلك وأعقل..

فأجبته بذهول: نعم، وهل لست كبيرة كفاية أو عاقلة لأطلب توصيف لعلاقتي بك أثناء السفر معك.

فرد هشام على عجل: يبدو أنكِ بحاجة لوقت للتفكير، أمامكِ ثلاثة أيام حتى نتمكن من حجز تذاكر الطيران، سأنتظر منك اتصالًا لتخبريني بالموافقة إلى اللقاء حبيبتي.

لم أمتلك شيئًا حينها للرد عليه، فلم أكن أشعر سوى بالصدمة ولم أفكر حتى بأن أتصل به لاحقًا. فكل ما كنت أفكر به، ترى ما هي طبيعة مشاعري التي راودتني خلال الفترة الماضية؟ هل كان حبًا حقًا؟ وهل كان متبادلًا؟ وما سبب كلمة حبيبتي التي قالها دون اكتراث منه بنهاية المكالمة؟ هل هو معتاد على مناداة كل الفتيات اللاتي يقربنه بتلك الصفة والأُلفة؟

لم أستفق من كل تلك الأفكار إلا وجرس الهاتف يرن لألتفت حولي لأجد نفسي وسط حقل ما بقريتنا وأتساءل في ذهول كيف وصلت إلى هنا. يبدو أن قدماي أخذتني لمكان بعيد وأنا شاردة الذهن مع ذكرياتي لأنتبه لشاشة الهاتف، فأجد اسم المتصل: هشام لأُجيب في تردد فأسمع صوته: ندى حبيبتي، لقد اشتقت إليكِ.....

لم أملك جوابًا لهذا، فوجدت نفسي أجيبه: وهل تذكرتني الآن بعد مرور عام كامل لقول مثل هذه الكلمات؟ ألم تجد ولو دقيقة لتخبرني بتلك الكلمات قبل سفرك؟ ألم تجد دقيقة لتطَمئنني بأن ما كنت أشعر به تجاهك وما تبادلني إياه حب حقًا وليس مجرد وهم أو تمضية وقت لقتل فراغ ما. وأثناء عتابي له ما لبست أن انهمرت دموعي وبدأ صوتي يختنق، فلم أستطع أن أكمل كلامي، فأنهيت المحادثة وأسرعت للعودة إلى منزل جدتي. في الأيام اللاحقة، وصلتني منه عدة اتصالات ولم أجبها، كنت أشعر أنني ما زلت مصدومة طوال عام كامل، كنت أُعاقِب نفسي كأنني ارتكبت جُرمًا ما. فربما كان ابتعاده لخطأ مني لم أحسب له حسابًا، وربما لأنني لم أحدد شكلًا معينًا لعلاقتنا منذ البداية، فكان حبًّا عُذريًا دون شرط أو قيد.

بعد عدة أيام، كانت قد انتهت إجازتي السنوية فلم آخذ ولو يومًا واحدًا إجازة طوال العام السابق، كل ما كنت أفكر به أن أُشغِل كل وقتي حتى لا أجد لحظة يتسرب فيها طيفه إلى ذاكرتي. عدت للعمل مرة أخرى وكأن المجهود الذي بذلته طوال العام الماضي لنسيانه لم يكن شيئًا. وبدأت في العمل وقبل انتهاء يوم عملي بساعتين، أرسل أستاذ تحسين مدير دار النشر في طلبي. وعندما ذهبت إلى مكتبه، وجدته جالسًا برفقة هشام يرمقني بابتسامة. وقال: لقد كان أستاذ هشام يمر بجوار دار النشر وأصر أن يمر علينا للسلام وبالأخص؛ ليشكركِ على مجهودكِ بالرواية الماضية فما زالت تُحَقِّق نجاحات حتى الآن. رددت بابتسامة فاترة وتركنا أستاذ تحسين وذهب؛ ليُنهي بعض أعمال التوقيع.

فبدأ هشام كلامه متسائلًا عن سبب عدم إجابتي على مكالمته؟ وأنه يريد أن يتحدث معي منفردين؛ لكي يشرح لي ما حدث وأصر على مقابلتي في مطعم ما بعد انتهاء ساعات العمل؛ ليُوَضِّح لي سبب سفره. وافقت على مضض لَما رأيت من إصرار كبير منه وحتى لا يشعر أحد من زملائي بالعمل بشيء.

وبعد انتهاء العمل، ذهبت لمقابلته بالمطعم وأخذ يحكي عن سبب سفره وأنه كان يفكر في كتابة رواية جديدة، وبعد مدة من سفره، قابل حبه الأول بإحدى المدن الأوربية وتصالحا لبعض الوقت. وفي يوم من الأيام، استيقظ من نومه بعد حلمه بي وأني كنت أمد يدي له بالحلم لكي ينقذني من شر ما، ومن ذلك اليوم وطوال الوقت يفكر بي ويقارن بيني وبين حبيبته الأولى إلى أن اكتشف حبه لي، فقرر أخيرًا أن ينهي علاقته بحبيبته الأولى إلى الأبد وأن يعود إليّ.

طوال مدة حديثه، كنت أنظر له وأستمع إليه وكأن كل ما يقوله مُسَلَّم به، فلم أكن أتوقع منه الكثير. ولكن ألم يدرِ ذلك الأحمق أنني لم أفكر بشيء سواه طوال عام، وإنني كنت أصحو من النوم كل ليلة فزعة أنادي باسمه. ألم يعلم أنه صار كابوسًا يؤرقني كل ليلة مدة عام.

وبعد عدة دقائق، نظرت له نظرة ساخرة وعلى وجهي ابتسامة. وقلت له: هل انتهيت؟

فأجابني نعم..

فأخبرته أني كنت أظن أني حبه الأول وليس فتاة أجنبية ما، ولو كنت أعلم أني أواجه كل ذلك وهو يتنعم بالسعادة في حضن امرأة أخرى، لِمَ تكلفت عناء انتظاره من الأساس. قلت وأخيرًا أريد أن

أشكرك هشام، فقد وَضَّحت لي الكثير شكرًا لعنائك، ولكني أدرك الآن أني لم أعد أحبك وأنك لست مناسبًا لي بالمرة إلى اللقاء، أتمنى لك السعادة مع غيري..

تركته في حالة تُشبِه الصدمة، فقد كان يعتقد أني سأفتح له ذراعي؛ ليرتمي بينهما ويبكي على كل أوجاعه وصدماته السابقة. ولكني أدركت أني لم أعطِ نفسي يومًا قدرها وأربت بيدي على جروحي، لعلها تُشفى، لقد كنت أتألم فقط وأستلذ بذلك الألم.

خرجت من ذلك المطعم وتوجهت للشارع ثم الرصيف الموازي له المقابل للنيل وقررت أن أمشي إلى بيتي بمحاذاة النيل. لعل ذلك الهواء البارد يَشفي جرح الهوى الذي تركه بداخلي ذلك الروائي الرحالة. وأخذت أفكر بضرورة أن أُعَبِّر عن مشاعري على الورق أيضًا، فربما أصبحت روائية يومًا ما، والأهم سأتخلص من ذلك العبء الذي يقبع فوق صدري كأنه وحش يريد اختطاف قلبي، بل يجب أن أهدم كل الأسوار التي وضعتها حولي حتى أكتسب خبرة حقيقية من الحياة في التعامل مع البشر وليس مجرد الاكتفاء بوجهة نظر الراوي.

اليوم فقط أحسست أن قيودي قد انكسرت، فمرحبًا بالحرية.....

قلب لا يعرف الحب

كان يا ماكان بإحدى الممالك البعيدة ملكًا يملك الجاه والمال والقصور والحدائق، ويُدعى قمر الزمان، وكان شابًّا طويلًا أبيض الوجه بشعر أسود كالليل وعين مكتحلة بسواد الليل ولا يظهر على وجهه أي ابتسامة كالملك الذي فقد عرشه، فقد كان يشعر رغم امتلاكه لكل شيء بالحزن، فلا توجد فتاة واحدة ترضى به زوجًا، فقد تقدَّم سابقًا لأكثر من أميرة من أميرات الممالك المجاورة حتى فكَّر بأن يتنازل قليلًا فبإمكانه التقدم لخِطبة ابنة وزير ما بأي مملكة، ولكنهن لم يَرضَيْنه زوجًا، وكانت حجتهن دائمًا إنه لا يعرف الحب ولا يستطيع إسعاد أي امرأة كانت، فقد كان جامد الملامح لا يبتسم أبدًا ولم يكن يؤمن بجدوى كلمات الشعر، فهو لا يعتقد أن المرأة لها قدر عال؛ لذا سواء نَظَم الشعر أم لا فلن تكون كلماته لامرأة قط.

ولكن قبل أن يَتَّخذ قراره بشأن أي فتاة أنها سيئة ولا تصلح زوجة له، كانت تُسارِع الفتاة برفضه، فقرر أن يتنازل أكثر، فهو يريد لعرش البلاد أن يستمر له من خلال نسله إلى الأبد، ولا يريد ضياع المملكة لأي أحد بعد وفاته. تلك المرة سيَعرِض الأمر على عامة الشعب، فمن تقبل به زوجًا، سيتزوجها على الفور حتى وإن كانت دميمة ولا تملك جمالًا قط. ولكن عامة شعبه كانوا مستائين من معاملته لهم، فهي معاملة لا تملك أي إحسان أو رحمة، واعترض

الشعب أيضًا؛ لأن مملكتهم تُدعى مملكة الحور، فكل نساء المملكة جميلات للغاية، فتصوروا أن خطاب الملك إهانة لكل النساء الجميلات بالمملكة.

فاستدعى الملك وزيره لكي يجد له حلًّا فهو لا يريد العيش وحيدًا إلى الأبد، ولكن وزيره أيضًا كان يضيق به ذرعًا، فهو شخص لا يُحتمَل مغرور وكثير المطالب ولا يُعجبه العجب، فكيف يأتي له بامرأة تحتمله.

في قاعة القصر حيث الوسائد من الحرير والديباج الأحمر والحوائط مُزَيَّنة برسومات لممالك السماء من ملائكة وشمس ونجوم والأرضية من الرخام الأبيض اللامع الذي ترى انعكاس صورتك به، كان يجلس الملك على عرشه رافع الرأس معتدل القامة وحوله وزيره يناقشه بالأمر وجنوده الحرس.

قال الوزير: أقترح يا مولاي أن نستدعي ساحرًا، ربما يصنع لك عملًا ما كي تقع الفتيات بحبك.

فرد الملك: هل تمزح معي يا وزير؟ هل تريدني أن أنادي السَيَّاف لكي يقطع رقبتك؟

فرد الوزير: عفوًا يا مولاي. لا أقصد سوءً، ولكن ربما أحد النساء تُحبك بالسر، وقد صنعت لك عملًا ورمته بمحيط أو سفح جبل أو ببطن حوت، فعندها بإمكان الساحر فك هذا العمل، بالطبع لا أقصد أنه ليس هناك مَن ترضى بك، فأنت مولاي الشجاع كامل الصفات والألحاظ.

لقد زاع يا مولاي بالفترة الأخيرة صيت ساحرة تسكن الجبال على حدود البلاد ويقولون إنها تستطيع كل شيء، فهناك من رآها تُكَلِّم

الطير وتُجري الرياح وتحول القبيحة إلى حسناء، فإذا أمرت يا مولاي، أرسلت في طلبها لكي تحل لك مشاكلك.

فسأل الملك قمر الزمان: وماذا تُدعى تلك الساحرة؟

فأجاب الوزير: سمعتهم ينادونها سمراء، يا مولاي.

وسأل الملك: وهل هي سمراء اللون حقًّا؟

فأجاب الوزير في تردد: لا أعلم حقًّا يا مولاي، فلم يرها أحد من قبل، فهي تُكَلِّم الناس جميعًا من وراء حجاب.

فقال الملك قمر الزمان: حسنًا أيها الوزير، فلتُرسل في طلبها ولتعطِها ما تطلب من مال.

فرد الوزير: حسنًا يا مولاي، سمعًا وطاعة (وانصرف الوزير)

جهز الوزير قافلة لكي يذهب لساحرة الجبل وأخذ برفقته بعض الجنود وصررًا من الذهب كتقدمة لقَبول الساحرة لإبعاد السحر عن الملك.

ذهب الوزير في قافلة مسافة يوم حيث قطع الجسر وغابة شاسعة حتى وصل إلى الجبل، وعندما وصل الوزير مع الجند إلى سفح الجبل، لم يجد مدخلًا، فتعجَّب كيف يزور الناس الساحرة؟ وكيف تقضي حوائجهم؟ حتى انتابه الشك بأن يكون قد ذهب لمكان آخر بالخطأ، فقرر أن يجرب حظه فنادى بعلو صوته: أيتها الساحرة سمراء، جئنا لسؤالكِ في حاجة لنا.

فوجد حجارة من جانب الجبل تتساقط، فارتعد الوزير وجنوده وإذا بمدخل يظهر خلف الحجارة المتساقطة، وإذا بصوت يظهر كصدى ويقول: مَن أنتم؟ وما حاجتكم؟

فيجيب الوزير: أنا وزير مملكة الحور ولملكنا خدمة عند الساحرة سمراء، وقد جاء بعض الجنود للحماية لا أكثر، نرجو أن نقابل الساحرة؛ لنناقش معها الأمر.

فرد الصوت: أنا الساحرة سمراء والجبل مملكتي وليس لأي ملك سلطة هنا وليس بي حاجة بجنودكم، فإذا كان هناك أمر تريد مناقشته أيها الوزير معي، فلتتقدم وحدك وتترك جنودك بالباب، ولتأمن على نفسك، فكل من يدخل مملكتي آمن على نفسه وعقله وماله.

استغرب الوزير لذلك الطلب، ولكنه خاف أن يؤذيه الملك، إذا رجع من غير الساحرة خصوصًا وأنه من اقترح ذلك على الملك قمر الزمان.

فقرر الوزير المخاطرة بعد أن اطمأن لوعد الساحرة، وأخبر جنوده أنه لو تأخر، فليدخلوا لمساعدته، فربما حدث له سوء.

دخل الوزير إلى الكهف بداخل الجبل، فإذا به كهف ليس له سقف وتَبني العصافير لها أعشاشًا به، ويوجد به أشجار فاكهة كثيرة من كل الفصول ونهر صغير يجري وسط الأشجار، ظل الوزير يمشي داخل الكهف وكأنه ليس له نهاية. وإذا به فجأة يجد أمامه سريرًا مغطى بستائر ومغطى بالديباج الأحمر المُطرَز.

وسمع صوت الساحرة تسأله من خلف الستائر: ما حاجتك إليّ أيها الوزير؟

فأجاب الوزير في صوت خافت: عذرًا أيتها الساحرة، هي ليست حاجة لي، بل حاجة لمولاي الملك قمر الزمان ملك مملكة الحور، فإنه يبحث عن عروس تتزوجه وليس هناك امرأة توافق عليه،

فجئنا إليكِ لعله يكون مسحورًا فبإمكانك تخليصه من هذا السحر وسيكون لكِ مكافأة كبيرة.

فضحكت الساحرة بصوت عالٍ وقالت: أجئت لي يا وزير لكي أجد لمولاك عروسًا، لماذا لم تبحث بمملكة الحور؟ فقد سمعت أن بها جميلات كُثر، أو حتى بأي مملكة من حولكم إذا أراد ملككم الزواج بأميرة، هل هو قبيح لتلك الدرجة؟

فأجاب الوزير: على العكس يا سيدتي، فهو حسن الطلة، أعلم أنه يصعب تصديق ذلك، ولكنها الحقيقة، فملكنا شخص مغرور نوعًا ما، ولا يؤمن بالحب؛ لذلك لم تفلح كل محاولاته لإيجاد عروس.

فردت سمراء: إن ملكك ليس مسحورًا، وإنما لا يملك قلبًا لعاشق، فهو يحتاج علاجًا وليس دواءً للسحر.

فقال الوزير: أرجوكِ سيدتي، افعلي معه ما ترينه صحيحًا، ولكن أرجوكِ عالجيه، لقد جئت لأخذكِ لكي تعالجيه بالقصر وسنوفر لكِ كل سبل الراحة.

فقالت سمراء: شكرًا لكرمك أيها الوزير، لكني لن أترك الجبل أبدًا، فبإمكان ملكك القدوم إلى هنا لكي يحظى بمراده.

فقال الوزير: لكن يا سيدتي، إذا عُدت إليه من دونكِ، قد يأمر بقطع رقبتي، فهو متسلط نوعًا ما ولا يقبل الرفض قط.

تحيرت سمراء في أمرها، فهي لم تترك الجبل من قبل وكيف إذا ما جاءها زوار؟

فقالت: حسنًا أيها الوزير، فلتنتظر مع جنودك بالخارج حتى الصباح حتى أُهيئ أمري وأنظر في أمر ملكك قمر الزمان.

فقال الوزير: حسنًا سيدتي، لكِ ما ترين، سأنتظر جوابكِ بالخارج.

وانصرف الوزير وظل طوال الليل يدعو الله أن توافق الساحرة على طلب الملك حتى لا يخسر حياته.

ظلت سمراء مستيقظة طوال الليل تقرر ماذا ستفعل؟ حتى إذا ما غادرت كهفها لا يهجم عليه اللصوص؟ وماذا ستفعل بكل الأشخاص اللذين يأتون ليبحثوا عندها عن علاج لأمراضهم ومصائبهم، فاستدعت إحدى الشجيرات وأجلستها في مكانها وعملت لها سحرًا حتى تستطيع الكلام وتركت أمامها بلورة سحرية حتى يمكنها من خلالها مراقبة الكهف في غيابها، وأعدت ثيابها وبعض الطعام والشراب للطريق.

في الصباح، نادت سمراء للوزير: أيها الوزير، لقد حسمت أمري، سوف أأتي معكم، فلترسل جنودك لحمل أغراضي.

فقال الوزير: أمركِ سيدتي، حسنًا ما فعلتِ، وأمر الجنود بتجهيز الهودج وحمل الأغراض ثم خرجت عليهم سمراء. فإذا بها امرأة طويلة ترتدي ثوبًا من الحرير الأحمر المطرز بكامله وترسل على وجهها حجابًا لا يُبدي ملامحها لأحد، وكانت ممشوقة القوام.

فأخذ الجنود ينظرون إليها في عجب ويتمنون لو أُزيح الحجاب ليروا وجهها، فبعضهم أخذ يتكهن بأنها امرأة طاعنة بالعمر؛ لذلك لا تكشف عن وجهها، وآخرون يتمنون لو أنها فتاة حسناء يخسر الرجال قلوبهم لأجلها.

فتجهز الهودج ورفضت سمراء مساعدة أي أحد في ركوب الهودج، وأخذ الوزير والجنود ينظرون إليها وهي تركب الهودج، وكأنها فارس من الفرسان، فتعجبوا لكونها امرأة وصاروا بالقافلة مسافة يوم،

حتى وصلوا إلى القصر فاستقبل الحرس الوزير وعلى وجههم علامات القلق.

وقال أحدهم: لماذا تأخرت أيها الوزير؟ فالملك يستدعيك على وجه السرعة.

حتى أنه قال: إذا لم تأتِ اليوم وتأخرت أكثر من ذلك، فسيقوم بضرب عنقك.

فأخذ الوزير يضع يده حول رقبته ويقول: يبدو أن رقبتي ستُقطَع بكل الأحوال.

تقدمت الساحرة سمراء وبجوارها الوزير يرشدها للطريق وخلفهم الجنود يحملون متاع الساحرة،استسمح الوزير الملك حتى يسمح له بدخول قاعة القصر الكبرى لمقابلته، فدخلوا على الملك وكان جالسًا فوق عرشه يكلم أحد موظفى الديوان الملكي، وما أن رأى وجه الوزير حتى أمر الموظف بالانصراف وبدأ بنهر الوزير قائلًا: لماذا تأخرت ثلاث ليال؟ كل ذلك حتى تأتي بتلك المرأة المُشَعوِذة؟

فرمق الوزير الملك بنظرة قلق، ولكن الملك لم يستوعب ما يقصد الوزير؟ فقد كان خائفًا من أن تؤذيهم سمراء.

فتكلمت سمراء: لست مشعوذة يا مولاي، بل صاحبة علم، وإذا لم يكن بك حاجة لي لِمَ استدعيتني إلى هنا؟. لذا أرجو أن تشملني بعطفك أنا ووزيرك المسكين، فالطريق وحده يأخذ يومًا. وكان علي أيضًا أن أحدد إذا ما كنت جلالتك يُستحق النظر بأمرك أم لا؟

فرد الملك في عجب: ماذا تقولين؟ أستحق النظر بأمري! من أنتِ حتى تحدثيني بتلك الطريقة؟

فردت سمراء: أنا أميرة من بلاد بعيدة، وقد هجم جنود مملكة مجاورة على مملكتنا، وقتلوا جميع أفراد عائلتي، ولكنني تمكنت من الهرب بطريقة ما، ومملكتي الآن تقع بالكهف بداخل الجبل؛ لذا نحن متساوون بالشأن، أرجو أن تقبل ضيافتي حتى أحدد لك دواءً يُشفي عِلتك، فلست ممن يحبون سكن القصور عامة.

احتقن وجه الملك من الغيظ وهو لا يملك ردًّا مناسبًا على تلك الساحرة، ولكنه لا يقدر على طردها بعيدًا، فهو يحتاج إليها الآن، فليس هناك من امرأة ترضى به زوجًا، ولا بد من أنه أصبح حديث العامة، فقرر كبح جماح غضبه ومحاولة الهدوء.

فقال الملك: حسنًا يا سيدتي، بإمكانك الذهاب للحجرة التي أعددناها لكِ على أن نلتقي بالصباح، فلا بد من أنك متعبة يا سيدتي من الطريق وإذا نقصكِ أي شيء بإمكانك طلبه من الحراس.

فقالت سمراء: شكرًا لعطفك يا مولاي، ولكني أريد سؤالك عن شيء قبل الذهاب.

فقال الملك: ما سؤالكِ؟ تفضلي.

فأخرجت سمراء من جيب ردائها زهرة برية شديدة الحُسن، كان الوزير قد رأى مثلها بالسوق سابقًا، وكان الباعة يتقاتلون من أجلها وأخذ الحراس أيضًا ينظرون إليها مشدوهين.

فسألت سمراء الملك: هل بإمكانك أيها الملك إخباري عن هذه؟ وأخذت تنظر للزهرة بيديها.

فأجاب الملك: زهرة مثل باقي الزهور بحديقة القصر.

فأصاب سمراء خيبة أمل نوعًا ما وقالت: حسنًا لقد علمتُ عِلتك يا جلالة الملك، أراك صباح الغد.

فقال الملك في استهزاء: ولكني لم أراكِ اليوم، فوجهكِ مغطى بحجاب لقد سمعت صوتكِ فقط، فهل يعاني وجهك شيئًا يا سيدتي؟

فأجابت سمراء: نعم يا مولاي، يعاني وجهي أن كل من ينظر إليه، يُعاقب بالهلاك، وأظن أن جلالتك لا تود الهلاك وخاصة أنك ما زلت في ريعان الشباب.

انقبض وجه الملك واعتل لسانه، ثم قال: حسنًا، فلتذهبي وأشار بالانصراف.

في الطريق إلى حجرة سمراء الجديدة، سأل الوزير سمراء في إصرار: هل حقًّا عرفتِ يا سيدتي علة ملكنا؟

فهزت سمراء رأسها وقالت: نعم، فملكك لا يُقَدِّر الجمال وتلك عِلته، أشعر أنها ستكون مهمة صعبة.

فقال الوزير: ولكنكِ يا سيدتي لا يصعب عليكِ شيء، أعتقد أن ملكنا سينال شفاءه على يديكِ.

فقالت سمراء: حسنًا أيها الوزير، فالإيمان أيضًا جيد لأصحابه، ألقاك غدًا.

أشارت سمراء بيديها للحراس والجواري بأن يبقوا خارج حجرتها، فهي لا تريد من أحد أن يزعجها.

قامت سمراء بإغلاق أبواب الحجرة ونوافذها وألقت عليها سحرًا حتى لا تنال منها أعين المتطفلين، وبعد ذلك، ألقت بحجابها واستلقت على الفراش، كانت حجرة شاسعة بثريات من الذهب

وحوائط مزخرفة وفراش وثير وغطاء من الحرير، فشعرت كما لو عادت لقلعة والدها.

وقالت: ربما ستكون المرة الأولى التي أحظى فيها بنوم هادئ، فإذا ما وقع عدوان على القصر ولم يجدِ وجود الحراس نفعًا، فربما نفع سحري.... وغطت سمراء في نوم عميق.

على الجانب الآخر بغرفة الملك، ظل مستيقظًا طوال الليل يمشي بغرفته ما بين الباب والنافذة، ويتمتم كالهامس، لم تُخلَق بعد امرأة على وجه الأرض وتعاملني تلك المعاملة المشينة، لقد طفح الكيل منها كنت سآمر السياف بقطع رقبتها، يبدو أنها مشعوذة متسولة، إذا لم تأتِ على فعل شيء من شأنه مساعدتي بعلتي، فحتمًا سأقتلها بيدي.

في الصباح، حاولت الجواري طرق باب حجرة سمراء حتى تذهب للملك، ولكنها لم تجب، فخشين أن يكون قد أصابها مكروه، فحاولن فتح الباب فإذا بحجارة تقف خلف الباب، فشعرن بالرهبة والخوف، فعدن لقفل الباب ثانية.

والملك كل ساعة يرسل في طلب سمراء، ولكن لا يستطيع أحد الوصول إليها، حتى توسطت الشمس السماء فاستفاقت سمراء من نومها ونظرت لبلورتها السحرية، فوجدت الشمس توسطت السماء

فابتسمت وقالت: حقًا إنها المرة الأولى التي أحظى فيها بنوم جيد.

فقامت إلى تبديل ثيابها بثوب من الحرير الأخضر وغطت وجهها وأزالت السحر عن النوافذ والأبواب، ففتحت الباب لتجد جمعًا يقفون أمامها وكلهم ينظرون إليها ويرتجفون.

فقالت إحدى الجواري: إن الملك يطلبكِ يا سيدتي، وقد هدد بقطع رقابنا لتأخركِ عن لقائه.

فضحكت سمراء بصوت عالٍ وقالت: ألا يملك ملككم عقابًا سوى قطع الرقبة، ربما حان الوقت ليتعلم أسلوبًا آخر.

فضحكت الجواري لِمَ قالته سمراء ثم ما لبسن أن عدن لخوفهن مجددًا.

فقالت سمراء: لا تقلقن يا فتيات، سوف أحميكن من الملك انتظرن هنا، سأذهب إليه وحدي.

فأجابت الجواري: أمركِ سيدتي، وصمتن ينتظرن حكم الملك في قلق.

ذهبت سمراء للملك، فوجدته جالسًا على كرسيه يعتري وجهه الإرهاق والتعب.

فقالت سمراء: أُسعدت صباحًا يا مولاي. ألم تنم جيدًا ليلة البارحة؟

فنظر الملك لوجه سمراء في غيظ ثم قال: أين الجواري؟ ألم يخبرنكِ بالقدوم إليَّ؟ يا سياف، فلتقطع رقابهن.

فإذا بسمراء تلقي سحرًا على السياف فيتقيد بحبال كأغلال الحديد، فيطلب الملك من الحراس فك قيد السياف، ولكن كل من يقترب منه يتم قيده أيضًا، حتى خاف الجميع والملك نفسه وتوقفوا عن المحاولة.

ثم قالت سمراء: عذرًا يا مولاي، فليس للجواري ذنب في ذلك، فأنا عادة أنام بداخل قلعة محصنة بالسحر، فلا يستطيع أي أحد الدخول إليها، وكذلك جواريك، ثم أنني تأخرت بالنوم، فقد أتعبني

السفر وأنا لم أغادر الجبل منذ مدة طويلة، أرجو أن تعفو عنهن، فأنت لن تستطيع قتلهن في الغالب بوجودي هنا.

اغتاظ الملك كثيرًا، ولكنه قرر التنازل والخضوع لرأي سمراء.

ثم طلبت سمراء من الملك صرف الجند والسياف بعد فك قيودهم حتى يصبح بإمكانهما التحدث، فصرفهم الملك على مضض، رغم خوفه على نفسه أن تقتله سمراء، فهو لا يثق بها.

وبدأت سمراء في سؤال الملك: هل أحببت يا مولاي من قبل وصُدمت بحبك؟

فكانت إجابة الملك: لا، لم يحدث ذلك، وإن حدث، فلن أعرف، فأنا لا أؤمن بالحب.

فسألت سمراء: وماذا عن والدتك هل أحببتها يا مولاي؟

فأجاب الملك: لم أرَ أمي قط، فقد تُوُفِيَت بعد ولادتي مباشرة، وكان والدي يحبها كثيرًا كما أخبرني؛ لذا لم يشأ الارتباط بغيرها حتى وافته المنية.

فقالت سمراء: حسنًا يا مولاي، ولكن هل لديك استعداد للحب والشعور بلوعة الشوق لامرأة ما؟

فأجاب الملك: كل ما أريده أن يبقى نسلي بتلك المملكة حفاظًا على وصية والدي، من أي من كانت؟ لا يهمني ما شكلها أو لونها أو صفاتها؟

فتعجبت سمراء لهذا القلب الصدئ الذي لا يعرف فرح الشعور بالحب ومبادلة الحبيب مشاعر الشوق والوله.

فبدأت سمراء في سرد بعض القَصَص عمن وقعوا بالحب وضحوا بحياتهم لأجله، وكان الملك يستمع لقصصها في صمت ولا يبدو على

ملامحه أي تأثر أو استجابة، فطلبت سمراء من الملك أن يجلس كل يوم بحديقة القصر يتأمل مظهر الورود ويشم عبيرها ويتأمل مياه النهر الجاري بالحديقة، ولا يكلم أي أحد مدة ساعة كاملة ومدة أسبوع لم يعتقد الملك بجدوى ذلك،

ولكنه قال لسمراء: حسنًا فلنجرب ذلك. ولكنه سألها: ماذا سيفعل طوال النهار بعدها؟

فأجابته سمراء: ستدير شؤون المملكة، ولكن بالمساء ستجلس بالشرفة تتأمل القمر، وإذا لم يكن القمر ظاهرًا، فلتتأمل النجوم.

تركت سمراء الملك؛ ليُكمِل مهام حكمه وطلبت من الجواري أن يُرشدنها إلى حديقة القصر، فإذا بجمال يفوق الوصف، حديقة واسعة بها أشجار مرتبة وزهور نادرة لم ترَ لها مثيلًا قط، وعين ماء حولها تماثيل لأطفال يلعبون من الرخام وتنسل المياه من بين أصابعهم ووسائد من الحرير والديباج. فتعَجَّبت من ذلك المنظر البهيج وقالت في نفسها: حقًّا الحب لا يُوَرَّث.

فقامت سمراء بسحر كل الورود وملئها بالأشواك، وجاء الوقت وذهب الملك وسط حراسه للحديقة وجلس في وسط الورود، وكلما هم بلمس وردة ما، ينجرح إصبعه، فهم الملك للقيام، فجاءت سمراء وأمرته بالجلوس، فلم يحن الوقت بعد.

ولكن الملك قال: سوف أعاقب البستاني على فعلته، فالورود كلها مليئة بالأشواك.

فقالت سمراء: لماذا تعاقبه؟ فأنا مَن فعلت ذلك بالورود.

فسألها الملك: هل تريدين إيذائي إلى هذا الحد؟

فأجابته سمراء: لا، ولكن أوضح لك معنى الحب، فالمحب حتى وإن مر بمخاطر وحتى لو أُدمي، فهو لا يبتعد عن محبوبته، مثلك أنت والورود، فإذا أحببتها حتى ولو جُرِحت، فلن تستطيع الابتعاد عنها، إذًا ما رأيك بتلك الوردة؟ هل هي حسنة اللون والمظهر؟

فأجاب الملك: أجل، فلها لون مُشرِق وبديع.

فقامت سمراء بإماتة كل الورود حتى تحولت إلى الذبول والسواد، فغضب الملك وقال: ما هذا الذي فعلتيه؟

فأجابته سمراء: هذا هو الفرق بين القلب المحب والذي لا يعرف الحب، فعندما تُحب، يكون قلبك مشرق اللون كالوردة في حياتها، وعندما لا تشعر بالحب، يكون قلبك مثل الوردة الذابلة.

قال الملك: حسنًا، ولكن هل بإمكانك إعادة الحياة لها. أرجوكِ.

ضحكت سمراء وقالت: ولكنها لم تفقد حياتها بعد.

فنظر الملك للورود ثانية، فإذا بها مشرقة ويانعة وأفضل من صورتها الأولى.

فضحك الملك وقال: حقًا يا سمراء، إنكِ لساحرة لا يُستهان بها، فكانت المرة الأولى التي يضحك فيها الملك من قلبه.

في المساء، جلس الملك بشرفة القلعة يتأمل القمر، فشعر شعورًا غريبًا من الوحدة لم يشعر به من قبل، فإذا بصوت ناى يأتي من الحديقة فنظر للحديقة فإذا بها سمراء تجلس ويحيط بها وهج غريب ممسكة بناي وتعزف عليه لحنًا جميلًا لم يَسمَع به الملك من قبل، فقرر الملك النظر للقمر حتى لا تعاقبه سمراء، إذا ما رأته يراقبها، ولكن تلك المرة شعر بشيء غريب وهو ينظر للقمر، فقد تبدد شعور الوحدة الذي أحسه من قبل.

وإذ فجأة تهب رياح شديدة فنظر تجاه سمراء فوجد حجابها قد رفعته الرياح، فقامت تلحق به فإذا بفتاة طويلة يبلغ شعرها قدميها ولونه بسواد الليل الحالك، فلمح جانبًا من وجهها، فإذا بوجه كصفاء القمر يشع بهجة ونورًا، فخاف الملك من أن يُهلَك كما قالت فنظر بعيدًا، ولكنه أحس بدقات قلبه تعلو كصوت ناقوس القلعة وكأنه يوشك على الانفجار، فغادر الملك شرفة القلعة سريعًا، وحاول أن يُهَدئ من روعه، ولكن خفقان قلبه استمر ولم يستطع الملك النوم حتى الصباح.

طلب الملك رؤية سمراء بالصباح الباكر، فحضرت إليه فأمر جنده والجواري بتركه وحيدًا.

فقال الملك: أود أن أعتذر منكِ يا سمراء، فقد رأيت جانبًا من وجهكِ ليلة البارحة مصادفة، ومنذ ذلك الوقت وقلبي لا يتوقف عن الخفقان بشدة. أشعر أني قاربت على الهلاك كما ذكرتِ. أرجو أن تسامحيني وتجعليه يهدأ.

صمتت سمراء قليلًا، ثم قالت: هل حدث لك هذا حقًا؟

فأومأ الملك رأسه بالإيجاب، فقامت سمراء بوضع يدها على صدر الملك حتى هدأت دقات قلبه ثم كشفت حجابها، فإذا بالملك مذهول صامت لا يقدر على الكلام.

فقد كان وجه سمراء أجمل من القمر، فوجهها مستدير ببياض أنصع من القمر وعلى ذقنها طابع من الحسن وعيناها بلون العسل المُصَفى.

فسكن الملك قليلًا ثم قال: يا إلهي، لم أرَ جمالًا مثل هذا قط، هل هذه حقًا صورتكِ الحقيقية؟

فابتسمت سمراء وقالت: نعم، هل تسؤك كثيرًا، عامة لا تقلق، لن تُهلَك، أنا أُخفي وجهي فقط؛ لأن كل من يراني يُصاب بالعشق وهو لمعظمكم أيها الرجال لعنة أو كارثة؛ لذلك أُخفيه وحتى أيضًا لا يطمع في ذلك الجمال من لا يستحقه.

فهمس الملك لسمراء: لم يصبني أي سوء، بل أصابتني نَعمة الحب، فلقد وقع عشقكِ بقلبي، الآن أدركت كيف يفقد الكثيرون صوابهم بالحب؟ هل بإمكانكِ يا سمراء البقاء معي للأبد بمملكتي.

فقالت سمراء: أخشى أن تتغير مشاعرك يا مولاي، فتبغضني بعد فترة.

فقال الملك: لا لن يحدث هذا، فلقد كدت أفقد صوابي حتى أحصل عليكِ، فلن أتركِكِ ترحلين عني بسهولة.

فقالت سمراء: سأغيب عنك طوال النهار مدة شهر، وألاقيك بالليل في حديقة القصر، وإذا ما زالت مشاعرك كما هي، عندها، سأبقى معك بالقصر للأبد.

فبدأ الملك يشعر بشوقه لسمراء منذ الآن، ولكنه وافقها فهو السبيل الوحيد لاختبار مشاعره ولكي يحظى بحبها للأبد.

كان الملك يدير شؤون مملكته بالصباح وفي المساء يستعد للقاء سمراء، ويرتدي أفضل الثياب لديه ويتعطر ويجلس بقربها بالحديقة، ولكنه طلب منها أن تريه وجهها، وكان يأمر الحراس بتركهم وحيدين والابتعاد فهو لا يريد أن يصيب حب سمراء أي رجل غيره.

وكانا يجلسان حتى ينتصف الليل يتسامران وتحكي له سمراء عن أخبار الممالك السابقة وتصف له مملكتها وتريه بعضًا من سحرها،

فأحيانًا تُحَوِّل ورق الأشجار لعصافير مغردة، فتظل تُحَلِّق حولهما طوال حديثهما، وأحيانًا تجعل مياه النهر تتراقص كحفلات القصور، وكان الملك يستمع لها في شوق وشغف شديدين لكل ما تأتي به من قصص وحكايات، فكل يوم يمر عليهما كانت سمراء تتعلق بالملك أكثر، وكان الملك يراها كل يوم أجمل من اليوم الذي يسبقه، حتى أضحت سمراء جنونه وليست عشقه فقط، وبدأ الملك يُسمِع سمراء كلامًا لم يقله قط لأي امرأة.

فأحيانًا يقول الملك لسمراء: أضحى حبي لكِ كحبات المطر تلامس أوراق الشجر ليمحى كل ما كان قبلها ويعطيها رونقًا جديدًا بل يعطيها حياة جديدة. أحبكِ يا سمراء حبًا كالشمس ترسل بدفئها للمخلوقات جميعًا فتجعلها قادرة على الاستمرار على قيد الحياة. حُبكِ يا سمراء كشلال ماء يتدفق من أعلى الجبال ويخترق كل الصخور في طريقه؛ ليعانِق قوس قزح، فيزداد المنظر بهاءً.

وكلما يمضي الوقت، تشعر بحبها يزداد تجاه الملك، ويشعر الملك بجمال كل ما حوله ويزداد حبه لجمال سمراء، تلك الزهرة التي نبتت بصحرائه القاحلة؛ لتُعطي له قدرًا من السعادة لم يشعر به من قبل، وبعد مرور شهر وأثناء جلوس الملك قمر الزمان وحبيبته سمراء بحديقة القصر، جثا على ركبتيه

وقال لسمراء: لم أعرف الحب قبلكِ قط يا سمراء، كنت كالصحراء القاحلة تشتهي الماء ولم تحصل عليه إلا بقدومكِ، كنت كالقمر بالسماء في ليلة غائمة وحيدًا لا تسليه النجوم بحضورها، كنت كنبتة وحيدة وسط الثلج قبل قدومكِ، لا تشعر سوى بالبرد ولا تجد دفءً.

فهل تقبلي يا سمراء بأن تكوني نصفي الأجمل ورفيقة دربي، فبدونكِ حياتي لا تكتمل.

فقالت سمراء: أنا أيضًا يا ملكي، لم أعرف الأمان والسعادة إلا منذ أن جئت إلى قصرك وفي كل ليلة أتركك فيها لأذهب لفراشي تطوف ملامحك بعقلي ولا أستطيع إبعاد صورتك من أمام عيني وكأنك بت تسكنني، الآن فقط يا ملكي انتهى دوري كساحرة لأعيش دوري كحبيبتك المخلصة والوفية إلى الأبد ولن أمنحك سوى الحب.

ففرح الملك فرحًا شديدًا لذلك وتعانقا طويلًا وتعاهدا بألا يشعروا إلا بالحب فقط وللأبد وأن يُرَبوا أطفالهم على الحب وتقدير الجمال والشعور به.

وفي صباح اليوم التالي، أمر الملك بأن تُقام الأفراح بالمملكة مدة شهر كامل، وتم الزواج وعاشا بسعادة معًا إلى الأبد.

في حضرة العشق

الانتظار

تمر الأيام والأشهر والسنوات وأنا جالسة أمام النافذة في انتظار عودته، لا أمل أبدًا، وكأنه خرج لشراء بعض الحاجيات، تتغير خصلات شعري إلى اللون الرمادي، وتوبخني أمي إلى متى ستظلين على هذه الحال؟ أليس هناك رجل غيره؟ هل أنتِ حمقاء لهذه الدرجة؟ متى ستسمحين لقلبكِ بحب غيره؟ لقد تركلكِ للأبد.

أرفض الإنصات لها، أُغلق آذاني وباب حجرتي سيأتي بالتأكيد، لقد وعدني بألا يتركني أبدًا.. أتصفح كتابه المفضل؛ لأجد بين ثناياه وردة أهداها لي وقد ذبلت كم كانت غالية عندي لأنها ذكرى منه، يعبث الشيطان بأفكاري ترى هل ذبل حبنا مثل هذه الوردة؟ أغسل وجهي بالماء وأنفض معه هذه الأفكار. لا لا لا بل سيعود يومًا ما حتى وإن فرقتنا أبحر ووديان، فحبي لم يكن كذبة بل كان إحساسًا صادقًا يملأ وجداني وينير قلبي.. سيعود حتمًا.....

كنا صغيرين، عندما أحببنا بعضنا، تقابلنا باليوم الأول لدراستنا بكلية الآداب وكنا معًا بقسم اللغة العربية كنا ممن يعشقون رسم الحروف وتشكيلها، يجمعنا حب الشعر والحكاية، كنا دائمًا نجلس في مقعدين متجاورين أثناء المحاضرات، ويرمق كلٌ منا الآخر بنظرة عابرة إلى أن تملكتنا الشجاعة للحديث للمرة الأولى في إحدى المحاضرات: مرحبًا أُدعى حسن، وأنتِ ما اسمكِ؟ فأجبته منى...

ووجدنا أنفسنا نُكمِل جمل بعضنا البعض ونختار نفس الكتب والروايات عند ذهابنا لمكتبة الجامعة..

كان شابًا طويلًا خمري اللون ذا شعر أسود وأعين بنية، وكنت فتاة بيضاء متوسطة الطول ذات شعر أسود قصير وأعين خضراء، وكنا نجلس لساعات طويلة بعد انتهاء المحاضرات نقضيها مع الكتب، ونهيم في تفاصيلها من سير وأحداث وصراعات وحب وكنا نعود لمنازلنا كمن انتصر بالحرب لاقتناص كل ذلك الوقت من يومنا معًا، وفي المساء، نسهر لنتحدث على الهاتف ونناقش ما قرأناه. كنا نحن الاثنين من أسر متوسطة الحال، لم نكن فاحشي الثراء أو كان أحدنا كذلك، ولكن كنا نحمل بداخلنا أحلامًا لم يقدر أحد على امتلاكها؛ لذا كانت لدينا أثمن من الذهب والماس. والأيام تجر الأيام إلى أن انتهت أيام الدراسة وحصلنا على نفس التقديرات تمامًا وكأننا كنا عقلًا واحدًا. وبعد التخرج، تفرقت بنا السبل، فقد عملت بمدرسة ما وهو بأخرى، ولكننا تعاهدنا على أن نتقابل في يوم إجازتنا ونحمل معنا الكتب التي يجب قراءتها ونذهب للمكتبات والمقاهي والحدائق أحيانًا. في انتظار أن يأتي اليوم الذي نُكَوِّن به أنفسنا ونكون قادرين ماديًا على الارتباط، حتى لا يعارض أهلنا ذلك الارتباط. فقد كان كحلم جميل بالنسبة لي، لا أريد الاستيقاظ منه، وقد كنت بالنسبة له كجنة تهوى القلوب إليها للارتياح من عناء السفر والترحال كما كان يصفني دائمًا. وظللنا على تلك الحال هائمين مع أحلامنا إلى أن أتى لي ذات يوم يُخبرني أنه عُرض عليه فرصة عمل للتدريس بالخارج وسوف يتقاضى بالمقابل راتبًا جيدًا، وبإمكانه وقتها أن يُقَصِّر من مدة الانتظار لكي

نجتمع معًا في أقرب وقت. عندها، لم أتحمس لفكرة سفره أو لمجرد غيابه عني، فقد كنت أستمد منه الطاقة للبقاء على قيد الحياة، فكيف وهو بعيد عني كل هذا البعد حتى وإن كانت بلدًا عربية، ربما أصابني وقتها شيء من الأنانية، فحبه كان كل ما أملك وقتها، ولم أستطع الاستغناء عنه بسهولة أو أن أبعده عني في تلك الصفقة.. تناقشنا كثيرًا وتجادلنا، ولكني في النهاية وافقت على مضض. أذكر يوم ودعته بالمطار وكان قلبي منقبضًا وكأني أودعه للمرة الأخيرة، ورغم كل تعهداته بأنه لن يطيل الغياب وقسمه لي أنه سيعود حتمًا، فهو لا يقنع بأي امرأة سواي، ولكن ذلك الشبح المسمى بخوف الفقد كان يسيطر على مشاعري ويجعلني في حالة سيئة. تركته يذهب وأنا أتمنى في نفسي، لو أصرخ بعلو صوتي لأقول له أن ينتظر وألا يتركني وحيدة ويرحل، ولكن هذا لم يحدث، سافر للخارج ولم تنقطع مراسلاته، فكان يبعث لي خطابًا كل أسبوع وأرسل له خطابًا أيضًا ولكني لم أشعر وقتها أن الورق كاف بأن يُعَبِّر عن كل تلك المشاعر والكلمات التي تختنق بداخلي، فالورق وإن كَثُر، دائمًا ما يحدنا بهوامشه وسطوره ويبقى غير قادر على إيصال كل ما يحدث داخلنا.. استمرت المراسلات مدة ثمانية أشهر في خلال تلك المدة، تقدم لي عريسان أحدهما ابن خالتي والآخر مدرس زميلي بالمدرسة التي كنت أعمل بها، وكانت أمي تلح عليَّ بالارتباط، وإن كانت تفضل ابن خالتي عمر أكثر، فهو كما تقول عريس كامل الأوصاف، فقد كان يعمل مهندسًا بأحد مكاتب الإنشاءات الكبيرة وكان يكبرني بعامين، شاب طويل جميل الطلة أبيض البشرة ذو أعين خضراء ولديه دخل ثابت وممتاز ويملك

شقة، وغير هذا، فإنه ابن خالتي وسوف يحافظ عليّ ولن يرفض لي طلبًا، ولكني رغم ذلك، كنت أراه دائمًا أخًا لي، فقد كنت مشهورة بين أصدقائي بشخصيتي المرحة وتفاؤلي الزائد، ولكنه على العكس مني تمامًا، فقد كان شخصية جامدة بعض الشيء، ويخطط لكل شيء بحياته بالورقة والقلم، فكل شيء يحدث له بحياته له خطة محددة ومواعيد للعمل وعليه الانتهاء منها، لم يكن يترك عمر شيئًا للصدفة، حتى أنني أذكر أنه عندما كان يرافقنا بالخروج في مرحلة المراهقة، كان يضبط ساعته في كل شيء فالأكل له موعد واللعب له موعد، فكنت أشعر برفقته أنني سجينة للوقت ولا أستطيع أن أفرد جناحي؛ لأحلق بهم خارج ذلك الصندوق أو أن أطلب شيئًا خارج ذلك الجدول الذي وضعه لنفسه؛ لذلك كانت فكرة الارتباط به شبه مستحيلة، فحياتنا عادة تكثر بها السجون فلماذا أزيدها سجنًا؟ أعلم أن أمي وخالتي ستحزنان لذلك، ولكني قررت مصارحتهما برفضي حتى لا تتأملان وتبنيان قصورًا بالهواء، ولكن أمي لم تكن قادرة على تولي مهمة إخبار خالتي، فتوليت عنها مهمة إخبارها بالطبع، حزنت خالتي كثيرًا ولم تعد علاقتنا كما في السابق، ولكن كل صدمة في بدايتها تكن صعبة ثم تُنسى مع الوقت.

أما بالنسبة للعريس الآخر، فقد كان زميلي بالمدرسة ويُدعى محمود وبعد فترة شهرين من عملي بالمدرسة، كان يتحين الفرص للكلام معي، كان شابًا أسمر البشرة متوسط الطول ذا شعر أسود وأعين مائلة للسواد من وجه قبلي، وفي كلامه شيء من لكنة أهل الصعيد واضحة لمن يحدثه، وكنت أشعر وكأنه يلاحقني دائمًا في أنحاء

المدرسة، ففي اجتماع المدرسين، يسعى إلى الجلوس بجواري ويتحين الفرص للحديث معي وإبداء آرائه في كل شيء يتعلق بالفصل الذي كنت مسؤولة عنه، وفي بعض الأحيان، حين أمرض، يتبرع بتدريس كل حصصي لطلابي بدلًا مني، كان في اهتمامه بي ما يثير الريبة.

وذات يوم، أخبرني أنه مُعجب بي وبأنه طوال الفترة الماضية كان يراقبني عن قُرب، حتى أنه أخبرني أنه تبعني ذات مرة إلى مكان سكني وسأل عني الجيران ومن يعملون في محال تجارية بالقُرب من منزلنا، وأنه علم مكان عمل أبي من الجيران وذهب لمقابلته واتفق معه على موعد لزيارتنا يوم الجمعة القادمة هو وأسرته الكريمة للتقدم لطلب يدي وكنت أستمع إليه وأنا أشعر بشيء من الصدمة أو قل ذهولًا.

فمتى فعل كل ذلك؟ وما هذا الجنون الذي يتحدث به؟ هل هو أحمق حقًّا؟ في نفس اليوم، ذهبت للمنزل وتحدثت مع أبي، فأخبرني أن زميلًا لي بالمدرسة يُدعى محمود ذهب إليه بالعمل وتقدم لخطبتي وأخبره بأني أُبادله نفس المشاعر ولن أرفض طلبه للزواج بي، كنت أنظر لأبي بحالة من الصدمة ولم أستطع تمالك نفسي من كثرة الضحك، فأخبرت أبي بحكايته وبكل ما حدث مع ذلك الشاب وبمطاردته لي،

فقال: اتركِ لي هذا الأمر، سأتصرف معه.

وجاء يوم الجمعة وأتى لمنزلنا، وكنت قبلها بأيام أتجنبه قدر المستطاع، فجاء مع عائلته أبوه وأخوه الأكبر وكانوا أناسًا عاديين ممن يعيشون من زراعة أرضهم، وكانوا يرتدون جلابيب غامقة

اللون، كنت أشعر وقتها بحنق وغضب شديدين، ولم يستطع أبي أن يتراجع عن دعوته وقال: فلنرى ما سيحدث..

جلس الضيوف بغرفة الاستقبال وقَدَّمت أمي شرابًا باردًا. وبدأ عريس الغفلة (كما يُدعى في ثقافتنا) بالتعريف عن نفسه ثم إخبار أبي عن ظروفه المادية وكان له خمس أخوات بنات وأخوين آخرين غير الذي قدم معه، فقال باستعداده لتحمل المسؤولية، ولكن له شروطًا بأن أترك العمل وأرتدي الحجاب وأبقى بالمنزل ولا أعمل، استمع أبي إلى كلامه لآخره، ثم رد أبي: حقيقة ابنتي لا تُفَكِّر في ترك عملها لأي سبب من الأسباب، فهي لم تقضِ كل تلك سنوات التعليم لكي تبقى بالمنزل كلوحة تحتفظ بها، وبأنني لن أوافق على ذلك. ولكن العريس ظل يعدد من مزاياه وأنه لن يحملني همًّا لشيء وبأنني سأسكن معهم ببيت العائلة وسوف يتعاونون على خدمتي، وأصر على أن يأخذ رأيي، فقامت أمي وجاءت إليّ بغرفتي وحكت لي كل ذلك فأجبتها (لم أرضَ بسجن الأفكار الخاص بعمر لأرضى بسجن الجسد والأفكار والمشاعر الخاص بمحمود) فلتخبريه يا أمي بعدم موافقتي، وأني لا أريد الحديث معه مرة أخرى، حتى في المدرسة، فليتجنبني ذلك أفضل له....

أخبرتهم أمي بإجابتي، فاشتعلت وجوههم غضبًا وخرجوا من منزلنا منكسي الرأس. ليلتها جلست أنا وأمي وأبي نراجع ما حدث خلال اليوم ولكننا لم نتمالك أنفسنا من كثرة الضحك، في اليوم التالي عندما ذهبت للمدرسة، كان أستاذ محمود يتجنبني وغير قادر على النظر بوجهي، فأصبحت بعدها نادرًا ما أراه، بعد أن كان يتحين الفرص للكلام. حمدت الله على ذلك، فالبُعد عنه أفضل من

الكلام مع مجنون مثله، وكم مر علي من أشخاص ما بين طلب خِطبة وزواج، ولكن حسن لم يكن يغادر تفكيري، وكنت أعد الأيام والساعات والدقائق على موعد استلام رسائله، في الحقيقة، لم أكن أُخبره بهؤلاء الأشخاص اللذين يتقدمون لخِطبتي، فقد كان شخصًا غيورًا لأقصى درجة ولم أرد أن أقلقه لكي ينتبه لعمله، عسى أن يجمع القدر بيننا قريبًا. فكنت أتذكر أيام الجامعة بعد معرفتي به واعترافه لي بمشاعره، فكان يتضايق كثيرًا، إذا ما تكلم معي أحد أصدقائنا، رغم أنهم يعرفون بحبه لي حتى أنه كان يسرع إلى إجابة أي شخص يسألني عن شيء ما، كنت أعتقد في البداية أنه لا يريد أن أتكلم مع غيره كمن يحفظ الماء بزجاجة حتى لا يتفلت من بين أصابعه، وحاولت لفت انتباهه أكثر من مرة، ولكنه كان يتكلم معي بكثير من الأشياء حتى حدث بيننا خلاف كبير يومًا ما.

فأجابني بأنه: (لا يريد أن يسمع صوتي شخص آخر غيره، فوجدت نفسي أجيبه بإنني لا أرى غيره) عندها فقط أصبحنا نشارك بندوات وفاعليات ومناقشات أكثر، وأصبحنا نتبادل الحوار ونكمل جمل بعضنا البعض وأصبح يترك لي أكثر الحديث عند تحدثنا مع أصدقائنا، فكان يُخبرني أن في حديثي يجب أن تتوقف النجوم والكواكب عن المسير لكي تستمع لي فقط. أحببت ذلك منه، فأصبحت علاقتنا قائمة على المشاركة واحترام كل منا لرأي الآخر.. ومرت الأيام تلو بعضها ثقيلة خالية من الحياة في غيابه، ففي الصباح الدوام المدرسي وفي المساء الجلوس بالمنزل ونادرًا ما كنت أقابل أصدقائي منذ أيام الجامعة، حتى المكتبة والمقهى والحديقة

كلها فقدت رونقها الذي لطالما شعرنا به، عندما نخرج معًا، مرت ثلاث سنوات على تلك الحال وأنا في انتظار دائم، ولكن رسائله بدأت في الانخفاض، فبعد أن كانت رسالة كل أسبوع، أصبحت رسالتين في الشهر ثم رسالة كل شهر، وكان يعلل ذلك بأن حجم عمله قد زاد وأصبح يعمل لوقت إضافي، وما بين تحضير دروسه وكثرة العمل، أصبح لا يجد وقت فراغ حتى لنفسه. حاولت أن أشغل نفسي بشيء ما بجوار عملي بالمدرسة، فوجدت عملًا إضافيًّا مصححًا لُغَويًّا بجريدة، كان عملًا غير منتظم، وكان بإمكاني أحيانًا مباشرته من المنزل. ولكن أفكاري أصبحت أكثر تشوشًا والأيام تجر بعضها حتى إنني تواصلت مع أخته رباب حتى أسألها عن أخباره.

فقالت: إنه لم يَعُد يتواصل معهم كثيرًا مثلما كان يفعل في بداية سفره، ويُرجع ذلك لكثرة العمل، ولكنها تشعر بأن أخيها قد تغيَّر، فبعد سفره بحوالي عام، كانت معظم رسائله لأخته تتضمن الكلام عن النقود ومستوى العيش بالخارج حتى أنه اقترح عليها بعد أن تنهي دراستها أن تذهب للعمل معه، حتى يؤانسا بعضهما ويكونا عونًا لبعضهما بالغربة.

وظللنا على تلك الحال حتى تجاوزنا الثلاث سنوات وكان ما يؤانسني رسالة منه بين الحين والآخر، وعندما لم أجد للرسالة أي معنى، كنت أستعلم من أخته عن أخباره، ولكنها لم تعد أخبارًا جيدة، فحسن ذلك الشخص الحنون كثير المشاعر لم يعد له وجود بعد الآن، كل ما تبقى منه شخص لا يسعى لغير النقود، وفي أحد الأيام، مرض والد حسن واتصلت رباب بأخيها لكي يزورهم؛ ليُخَفِّف عن والده، ولكنه لم يهتم، فوجدت رباب تتصل؛ لتستنجد

به، فقد كان حسن الابن الوحيد لأبيه، فذهبت إليها ونُقل والدها إلى المشفى ومكث بها عدة أيام ثم وافته المنية. عندها، اتصلت رباب بأخيها تُعلمه بالخبر وأخبرتني بأنها لم تجد أخاها مصدومًا مثلما أحست من صوته أثناء مكالمتها معه، وأخبرها بأنه سيأتي في أسرع وقت، ولكن أسرع وقت هذا كان بعد أسبوع بعد أن تم دفن والده. وقتها، أخبر شقيقته بأنه أخذ إجازة مدة أسبوع واحد فقط، وسيعود. فحزنت رباب لذلك كثيرًا وأخبرته:

(ألم يكفك غربة حتى الآن؟ مَن سيرعى أمي ويرعانا من بعد أبي ألا تعود لتؤانسنا وتكن عونًا لنا أنا وأمك وباقي إخوتك البنات) .

لكنه أجابها في حدة بأن المستقبل أن يبقى بالخارج؛ ليضمن لهم حياة كريمة حتى لا يحتاجون إلى أحد. ربما نسى أن مشاعره كانت كل ما يحتاجه إخوته وأمه في تلك الفترة. فالإحساس بوجود الرجل السند الذي يكون ساعدًا لمن يحبوه أهم من كل النقود بالعالم، لكنه لم يَعُد مثلما كان، فكيف بأفكاره. عندها، شعرت باليأس والملل وألححت عليه لمقابلتي، ولكني وجدت شيئًا من البرود من ناحيته في تعامله معي. وسألته: لمتى سوف أنتظرك؟

فأجابني بلا مبالاة: (أنا لم أطلب منكِ انتظارًا،أنتى من تصدقين بالحب وكل هُرائه وقلتى إنكِ ستنتظرين للأبد. فلماذا تستعجيلن ذلك الأبد الآن؟ أنفد حبكِ للأبد أيضًا؟) لم أدرِ وقتها بمَ أجيبه، فقد كنت أشعر بصدمة كبيرة بمشاعري أفقدتني النطق، لم أملك إلا أن أتركه وأرحل والدموع لا تفارق وجنتيَّ....

ظللت في حالة من الصدمة عدة أسابيع تالية لا أكلم أحدًا ولا آكل شيئًا. فقط أجلس بغرفتي أحدق بالجدران، وكنت قدمت على

إجازة من المدرسة. جلست أراجع نفسي أو ربما أحاسبها، فهل أخطأت بشيء في حبي له؟. وهل نسى هو كل تلك الذكريات الجميلة التي كانت تجمعنا طوال الأربع سنوات الخاصة بالدراسة وثلاث سنوات أخرى من المراسلات التي لا تشفي لهيب الحب بداخلي؟.. ما كل هذا الجفاء الذي أصبح يتعمده؟ أكنت عبءً عليه لتلك الدرجة؟ هل غيرته النقود بهذا الشكل الكبير؟ هل كان أناني منذ البداية ولم ألاحظ أنا ذلك؟

في الحقيقة، حاول الاتصال بي أكثر من مرة هو وأخته، ولكني لم أُجبهما. فقد تسبب بجرح غائر بداخلي، ربما من يقولون بالمثل (إن البعيد عن العين بعيد عن القلب) صحيح فالبعد تسبب له بالنسيان، وربما كان هو ذلك الشخص الذي لا يهتم سوى بالمال، ولكني لم أرَ حقيقته قط. كنت منذ مدة قد حكيت لأمي عن إعجابي بحسن وحبي له بعد أن أصرت عليَّ لمعرفة سبب رفضي لكل من يتقدمون لي. وبعد أن قضيت أسابيع في غرفتي، قررت أن أحكي لأمي ما حدث ربما أنا بحاجة لأن أرتمي بحضنها لأنسى كل وجع وألم مر بي. فهرعت إليها وحضنتها دون أن أحكي شيئًا وظلت دموعي تتساقط على وجنتيّ وهي تربت على كتفي وتسألني: ماذا بكِ يا حبيبتي؟ ولماذا تتألمين بهذا الشكل؟ وبعد أن هدأت، حكيت لها ما حدث من حسن. فأخبرتني أن من يفكر دائمًا بالمال ويصبح أهم شيء لديه، لن تكون للمشاعر حساب عنده، فلتتركيه ليرحل ولتعلمي أنه هو الخاسر، فلن يجد شخصًا مثلكِ يحبه لنفسه لا لماله، ولن يجد هو الثقة مع أي امرأة يعرفها. عندها، اقتنعت بكلام أمي واتصلت بأخت حسن لأخبرها أني سأتركه للأبد. حزنت

أخته لذلك كثيرًا، ولكني أدركت حينها ((أن فراقنا بدأ منذ أن ودعته بالمطار)) وكان كل ما أتى بعد ذلك مجرد انتظار لا معنى له..
بعدها بأيام استقبلنا اتصال تليفوني من خالتي؛ لتطمئن على أمي وتصالحا وعندها، قامت خالتي بدعوتنا إلى حضور حفل زفاف ابنتها علياء.

ذهبت مع أمي وأبي بعد إلحاحهما حتى لا يتركاني مع أفكاري بالمنزل، كان حفلًا بسيطًا، لكن ما كان يميزه حقًّا نظرة الثقة التي تطل من عين علياء تجاه زوجها.. عندها، علمت ما كان ينقصني مع حسن.

أثناء حفل الزفاف، اقترب مني شاب ما وقال: مرحبًا منى، لم أركِ منذ وقت طويل، لقد تغيرت ملامح وجهكِ كثيرًا. هل كنتِ مريضة مؤخرًا؟.. أخذت في النظر إليه لمحاولة معرفة من هو فإذا به عمر ابن خالتي. لم أعرفه في البداية، فعمر ذلك الشاب الوسيم الدقيق حتى في مظهره، ويهتم بكل شيء من ساعة يده إلى ربطة عنقه إلى حذائه لم يَعُد نفسه عمر الذي يقف أمامي ما زال وسيمًا، لكن هناك شيئًا تغير، فلقد أصبح مظهره شبابيًّا أكثر ويمتلك بعض الفكاهة.

فأجبته أنا أيضًا: مرحبًا عمر،أنا بخير، لكنك تغيرت أكثر مني، لم تعُد كعهدي بك، ما الذي حدث؟

فأطرق قليلًا ثم قال: لقد عدت لنفسي يا منى، لا تدري كم أشعر بالسعادة الآن والشغف لتجربة الكثير.

فوجدت نفسي أقول له: هيا احكِ لي أكثر عن نفسك وماذا حدث؟
فأجابني: وهل أستاذة منى لديها وقت لسماع حديثي المُمِل أم عليها الذهاب للمنزل لتصحيح واجب التلاميذ؟
فأجبته: حقًا! وهل ستجد أحدًا مثلي يسمعك؟ ربما طلبت منك وصفة مماثلة لعلاج حالتي؛ لتصبح عندها طبيبًا وليس مهندسًا.
فأجابني: لو كل مرضاي جميلات مثلكِ يا أستاذة منى، فعليّ أن أغير مهنتي فعلًا.
فضحكت وضحك هو، فأحسست أننا عدنا بالزمن للوراء كأننا أطفال نلهو معًا، وربما تشاجرنا للحصول على لعبة ما. توجهنا معًا إلى مطعم خارج قاعة الزفاف وكان يُطِل على النيل، وجلست أنا وهو نتحدث وأخبرني أنه مل العمل في المكتب وأن رؤساءه كانوا يسرقون مجهوده ولا يجد حتى تقدير بعد أن ينهي عمله. وكانت أعصابه مضغوطة طوال الوقت يحاول اللحاق بالركب، ودائمًا ما يهرول ليعيد الركض مجددًا حول نفسه. فقرر أن يقدم استقالته واتفق مع بعض أصدقائه على فتح مكتب هندسي، فأصبح يرتدي ما يريده لا يقيده شيء وأصبح أكثر رضا عن نفسه وحياته، وأصبح يجد وقتًا أطول لنفسه وللمرح مع أصدقائه. وأخبرني أنه في أسعد حالاته الآن.. ثم قال لي: وهل وجدتِ فارس أحلامكِ يا منى؟ أم ما زلتِ تبحثين مثلما أبحث أنا عن فتاة أحلامي؟
أطرقت وفي عينيَّ نظرة حزن، وأجبته: لا ما زلت أبحث مثلك، ربما قدرنا البحث للأبد.
فرد قائلًا: الآن بعد تغير كل تصرفاتي، أدركت أنكِ كنتِ على حق لرفضي، فلم تكن حتى نفسي راضية عني.... فتأسفت منه على

ذلك، ولكنه قال: لا تأسفي يا منى، فقد شجعتيني على أخذ ذلك القرار.

فسألته في دهشة: وكيف شجعتك؟ فأجابني: لا تستعجلي الإجابة يا منى، ربما أُجيبكِ يومًا ما.

انتهى الزفاف وذهب كلٌ منا لمنزله، ولكنه طلب مني الذهاب معه لمشاهدة فيلم في السينما مساء غد، فأصدقاؤه لا يحبون الأفلام الاجتماعية، فوافقت على ذلك، ربما كسر الروتين الممل لحياتي يجعلني أُقبل على الحياة من جديد..

كنا في نهاية فصل الصيف وارتديت فستان ربيعي بأكمام طويلة وتركت شعري مُرسَلًا على كتفيَّ، كان قد غطاهما ولم أعد أشعر برغبة في قصه مجددًا... جاء عمر لأخذي بسيارته من أمام المنزل، وكان يرتدي قميصًا وبنطالًا عاديًّا، وعندما رآني بمدخل البيت، وجدت على ملامحه بعض الصدمة، فقال لي: لو كنت أعلم أنكِ ستكونين جميلة لهذا الحد اليوم، لأتيت لاصطحابك بزي رسمي، لم أتمالك نفسي عن الضحك عندها. ربما كنت أفتقد للسعادة بحياتي. فوجدته يسبقني ويفتح لي باب السيارة، فشكرته بابتسامة وتوجهنا لصالة السينما. كان فيلمًا جيدًا، لكن لم يكن هناك إقبال كثير، جلسنا نشاهده معًا، وما بين ضحك ودموع تشاركنها معًا وجدت بعض راحة النفس التي كنت أبحث عنها. وتواعدنا أن نكرر زيارة السينما مرة أخرى ثم قام عمر بدعوتي لتناول العشاء بمطعم ما. وطوال تناولنا للطعام، لم نتشارك غير الضحك عن مواقف قابلتنا وأحداث طفولتنا. عندها، أحسست أني بخف ريشة تطير بالهواء وتقفز من غيمة لأخرى دون شيء يعيق قدميها أو

تحركها. واستمرت مقابلتنا بضعة شهور لأجده في يوم يلح عليَّ في الذهاب معه لموقع عمل ما يريد أخذ رأيي بتصميمه لفيلا ما قبل تسليمها لمالكها..

ذهبت للمكان الذي طلب مني رؤيته به وكان رائعًا حقًا له مدخل من أشجار الورود وممر من الأحجار وعلى جانبيه مصابيح صغيرة مُضاءة، وأثناء حديثي معه، بممر المنزل تأخر خطوتين فالتفت إليه لأجده يركع على ركبتيه ويخرج من جيبه علبة بها خاتمين ويقول: منى يا ابنة خالتي، كم أتعبتيني معكِ.

فابتسمت له وأنا في حالة من الذهول، وأكمل حديثه وهو يقول: لقد أحببتكِ منذ أن كنت أوصلكِ إلى المدرسة معي، منذ أن تشاركنا الطعام بفسحة المدرسة، منذ أن تلقيت ضربة عنكِ لكسر زجاج منزل جدتنا، ومنذ أول رحلة لنا معًا، لقد كنتُ أُحبكِ طوال الوقت الماضي وسأُحبكِ طالما ما زلت أتنفس، فهل تقبلين بأن تكوني زوجتي ونصفي الأجمل؟

ما زلت أتذكر تلك اللحظة إلى الآن ما بين ضحكي ودموعي ورعشتي عند موافقتي على طلبه، حقًا كنت أحتاج لمن يضمد لي جراحي، ولكني لم أعلم أننا نحن الاثنان ضمدنا جراح بعضنا البعض وأكملنا بعضنا البعض، وبعد عام، تم الزواج وخلال عام آخر، رُزِقنا بطفلة أسميناها (فرح) حتى تذكرنا بكل الأيام والذكريات السعيدة فقط التي مرت بنا.. وبعد عدة أعوام، شاءت الأقدار أن ألتقي برباب أخت حسن مصادفة، فسألتني عن أخباري؟ وسألتها عن أخبارها وأخبار أخيها، فأجابتني بأنه تزوج سيدة أعمال خليجية أرملة ولم يعُد يزور مِصر منذ ذلك الحين، يكتفي

بالمراسلات وإرسال النقود. عندها فقط، حمدت الله على تلك السعادة التي أرسلها الله لي، وتمنيت ألا تنتهي حتى يوم مماتي فقط وليس للأبد، وعلمت أنه كان مقدرًا لي مقابلة ذلك الشخص زميل الجامعة حتى أقدر تلك السعادة التي أعطاها لي عمر، وحتى أدرك معنى الحب، فهو ذلك الشخص الذي يبقى بجانبك بكل الأوقات وكل الظروف ولايدع الحزن يمس عينيكِ، فلا تملوا من البحث عنه، فهو موجود دائمًا، لكنه متخف فقط، فلا بد أن نجده بعد بذل الكثير من الجهد.....

عيد الحب

انتصف شهر فبراير وجاء عيد الحب، فانتظرت منه إشارة أو لمحة تُشعرني بأنه لم يكن خيالًا، وإنما حب اضطرب منامي لأجله حتى سمعت صوت النبضات كدقات أجراس كنيسة يوم الميلاد، فكنت أعتقد أن يوم حُبك هو يوم ميلادي الحقيقي. لكن يبدو أني توهمت ذلك، فكلما كانت تستوقفني رائحة عطركِ بالطرقات، تذكرتك وكأنك كنت تسكنني وتجري بعروقي مجرى الدم، كم كنت أسيرة هُرائك وكلامك الكاذب عن حب يقبع بين ثنايا الروح وعشق يسكن العينين يأبى البوح به وكأنه يخاف الظهور في العلن لا لكي يحسد أو يسرق، فعشقنا كما زعمت لم يُخلَق من قبل، ولكنه هبة لأرواحنا ستبقى حتى مماتنا، وبعده، ستُخَلَّد بين الأوراق العتيقة برف مكتبة بمدينة بغداد وبأن العاشقين سيتذكروننا بعد مئات السنوات، كقيس وليلى وروميو وجوليت، كم كنت حمقاء؟ لقد أسرتني كلماتك وأصبحت تؤرق بالي ليل نهار. انتظرت أن تأتيني فوق حصانك الأبيض تخطفني بعيدًا لنذهب إلى مدن الحب معًا.. تاركين ورائنا كل الشعارات وكل من هُزِموا في معركة الحب من قبل وأعلنت قلوبهم العصيان. كم تمنيت حقًّا أن تبقى أنت كما أنت فارس أحلامي ورفيق روحي الذي لطالما انتظرته، ولكن أحلامي لم تستمر كثيرًا، فاستيقظت وأنت تترك يدي وتُخبرني: عذرًا حبيبتي، لم يُكتَب لنا الحب في هذا الزمان، فهذه حماقة مني

وجشع بائن، فلم يُكتَب لي الحب كما قال العراف، وإنما أردت تجربة العشق كحال مستثناة وأعلن لكِ فشلي في فَهم الحب والعودة لأرض الأحلام، فواقعي لا يناسب أن يختال من هو مثلي بين رحيق الياسمين وزهر الرمان، فأنا من بيت لم يُنبِت حبًّا... ولم يزره العشاق يومًا، بل كان مجرد وهم وخيال..

أمسكت دموعي والنار مشتعلة بداخلي وأنا أردد لنفسي حقًّا كم كنت حمقاء؟ وهل ظننت أنك يومًا لي وأن يكون حبًّا صادقًا يتخطى الأزمان؟

انتهى المشهد وانطفأت الأضواء لوهلة، وساد الصمت بقاعة السينما، وظللت طوال اليوم أفكر في هذا المشهد. وتساءلت: تُرى هل بإمكان الحب أن يصبح سرابًا؟ كمن مر بالصحراء القاحلة يشتهي الماء، وكلما لاح له من بعيد صورة بئر وركض إليها، لا يجد شيئًا. ويظل على حاله بين ركض وتوقف، فعلى بُعد أمتار، يرى بئرًا أخرى، فيركض إليها، ولكنه يختفي من أمامه إلى أن تشمله معية الرحمن، فيصادف قرية أو يكون مصيره البحث، فيظل على حاله إلى الموت.

بعد ذلك الفيلم، ذهبت لمقهى قريب من قاعة السينما، وطلبت فنجانًا من القهوة وجلست أبحث بين أوراق مُفكرتي، فربما صادفني الحب يومًا ما، قد أكون نسيت ذلك الشعور، ولكني بالتأكيد كتبت عنه سابقًا، فأردت معرفة ماهية ذلك الشعور وتساءلت: هل هو مفرح أم مؤلم؟ هل له مذاق ككعكة التوت أم مذاقه حامض كالليمون؟ أم يختلف من شخص لآخر؟ فهناك من يعتاد ألم الحب ويرحب به فيوم يعيش أقصى درجات الحب وينظر

لعين مَن أحب ويتمنى ألا يفارقه ويومًا يهجره حبيبة فتتساقط من عينه الدموع، ولكنه لا يصدق بالنهاية، فسيعود حتمًا يومًا ما، فهو يثق بذلك الشعور الذي غمر وجدانه وكيانه كله منذ أن قابل ذلك الحب مصادفة، فيبقى على هذه الحال كحال ضربات القلب على جهاز رسم القلب، فهي آخذة بالصعود والهبوط إلى أن يأتي اليوم الذي تتوقف فيه عن عملها وتغادر أرضنا محملة بكل تلك الانفعالات وما ببالها سوى سؤال واحد: هل إستحق فعلًا أن أتحمل لأجله كل تلك الانحناءات المُرتبكة بمشاعري؟

وهناك مَن يرى في الحب فقط السعادة، فلا يرضى بغير ذلك، فإن أغضبه حبيبه يومًا، يتركه ويرحل، فهو على ثقة دائمًا أنه سيجد تلك السعادة المكتملة لدى شخص ما. ويلمح له طيفًا من بعيد يحمل بيده قطعة من السكر، فيظنها السعادة، فيركض إليها فأحيانًا يُصَدِّق حدثه، وأحيانًا يجدها مكعبًا من الملح، لكنه لا يفقد صبره ولا ييأس، فهو على ثقة تامة بتلك السعادة، فحتمًا سيلاقيها بالطريق لا يهم إن تأخرت إن أتت بأول العمر أو آخره، ولكنه وفاءً لقلبه أخذ على نفسه عهدًا بألا يشعر بغير السعادة.

فرفعت عيني عن مفكرتي وأخذت أنظر حولي بالمقهى، فهناك فتى وفتاة يجلسان يهمسان أحيانًا ويعلو صوتهما في حين آخر بين كلمات حب وغزل، ويحيط بهما وهج من اللون الأحمر كلون زهور عيد الحب ونظرات أعين ملتمعة تريد المزيد من تلك الكلمات التي تخطف الأنفاس والألباب، تراها قصة حب بين شاب وفتاة بالجامعة، ولكن تتساءل ما مصيرها؟ فهل سيستمران على تلك الحال حتى وإن عصفت بهما الأقدار؟ هل سيصيبهما الملل يومًا

فيسلمان للقدر ويكون الفراق عنوان فصلهم القادم، أم يحاربان للبقاء معًا؟

وهناك رجل آخر يجلس بمفرده على طاولة تحيط به هالة رمادية اللون مطرق الرأس يُشعِل سيجارًا وينهيه ليشعل آخر في عِقده الرابع من العمر، ترى هل مر بالحب أيضًا؟ وهل هذا هو تأثير الفراق؟ أم خذله الحب فلا يدري أيسامحه لكي لا يبتعد عنه، أم يتركه ويرحل؟ فربما كان الزمن قادرًا على مداواة جراحه.

وهناك امرأة تجلس بالزواية وتهمر دموعها وتمسك بمنديل تزيل به المكياج وهي بعِقدها الثالث أو ربما آصغر من ذلك، فالحزن يُعطي الوجوه أعمارًا أكبر من حقيقتها، هالتها تتراوح بين لونين، ففي البداية، كانت باللون الأحمر وأصبحت تتلاشى شيئًا فشيئًا حتى تُحال الرمادية، فيبدو أنها تأنقت كثيرًا لمقابلة حبيبها اليوم، لكن يبدو أنه أخلف موعده، لست أدري هل أخلفه لليوم فقط أم لكل الأيام الآتية؟

وهناك زوجان يجلسان بوسط المقهى هالتهما بألوان مختلطة يبتسمان لبعضهما بشيء من الرضا، فهما في عقدهما السادس ويرتديان خواتم الزفاف وينظران لها وكأنه لم يمضِ على زفافهما أكثر من أسبوع، أرى أن حبهما كان ناجحًا وتمكنا من تخطي كل المنحنيات التي مرا بها، فلو قابلاها بتلك الابتسامة التي أراها الآن، فحتمًا ستتركهما المشاكل؛ لتهرب بعيدًا.

عندما أعود لمفكرتي، أرى نفسي دائمًا طرفًا بقصة حب غير مُكتَمِلة، أحيانًا أشعر بالحب وأحيانًا بالشوق وأحيانًا بالغضب، لكن هناك ظلًّا لذلك الرجل الذي بقى شيء منه عالقًا بكل صفحة

من صفحات مفكرتي، فهو ليس بالقريب وليس بالبعيد، ليس بجواري وليس على سفر، وسيأتي ظل لرجل غير مفهوم، أتمنى لو يحدثني يومًا حتى أجد صورة واضحة له؛ ليتمكن عندها من وصف حقيقة مشاعره تجاهي وليس مجرد التكهن بِمَ سيَصدُر عنه.

أتصور أن قهوتي بردت، سأقوم بطلب أخرى، ولكني الآن سأفكر بالاستمتاع بطعم القهوة فقط، فربما شغلتني قليلًا عن التفكير بالحب، وربما همست لي بشيء آخر..

أحضر لي الجرسون القهوة وبدأت بارتشافها وبدأت تعود لي ذاكرة ذلك الرجل المتخفي بالظلال، كان يومي الأول للعمل بمجلة (الحدث) كان شابًا طويلًا رفيع القامة ذا شعر بني اللون وأعين خضراء، وكان خريج كلية فنون جميلة، ويعمل مُصَوِّرًا، كنت قد تخرجت في كلية الإعلام منذ عدة شهور، فتاة متوسطة القامة ذات شعر أسود وأعين بنية اللون، تعرفت بزملائي بالعمل وشعرت بدقات قلبي، عندما تلاقت أعيننا للمرة الأولى، فرَحَّب بي قائلًا: مرحبًا آنسة سلمى، أُدعى أمجد، أرجو أن ترتاحي بالعمل معنا.

لم يكن يشغلني الحب طوال سنوات الدراسة، فكنت أشغل نفسي بالكثير بجانب دراستي حتى أجد عملًا سريعًا بعد التخرج، فقد كنت ممن لا يهوى الجلوس بالمنزل والانتظار لحين تُعطيهم الأقدار ما يأملونه. ولكن عندما نظرت بعينيّ، شعرت بتلك الرعشة التي تُنبئنا بأن شيئًا ما على وشك الحدوث.

كنت أعمل بالمجلة بقسم الموضة، وكنت أحتاج مصورًا معي لحضور بعض عروض الأزياء، فتطوع لذلك دون أن أطلب منه

ذلك، رغم وجود مُصَوِّر آخر، ولكن أعماله قد أعجبتني كثيرًا، فقد شاهدت بعد الصور التي قام بالتقاطها لبعض المقالات لأرشيف المجلة. فأحببت أيضًا العمل معه، ورغم أن بعض عارضات الأزياء يبدين في مشيتهن كتماثيل الشمع. ولكن صور أمجد كانت مختلفة، فبعد انتهاء العرض عرض عليّ بعض الصور التي قام بالتقاطها، وكانت مليئة بالحياة جعلتني أغير من نظرتي للعرض وكأنه رأى شيئًا لم أكن قادرة على رؤيته.

أنهيت المقال وقمت بتقديمه مع الصور، فأثنت رئيسة التحرير على عملي، ولكنها بمجرد أن رأت الصور قالت: أمجد كعادته يُعطي الحياة لكل الصور.

ومن وقتها، أصبح يرافقني بكل العروض وكنا كثيرًا ما نحتسي القهوة معًا في بداية يوم العمل، وأحيانًا كان يوصلني بسيارته إلى منزلي، كانت سيارة صغيرة، ولكنها كانت كشقة يبيت بها، فتحوي ألبومات صور وشنطة سفر، فسألته عن ذلك، فقال: إنه يذهب بكثير من الرحلات هو وأصدقاؤه ويجب أن يكون مستعدًا دائمًا، فهو لا يتخلى عن أي فرصة للذهاب لأي مكان قد يجد به الإلهام لمجموعة صور جديدة.

وعرض عليَّ مجموعة من الصور بعدة ألبومات عن أماكن كان قد زارها أو معارض صور قد أقامها بالاشتراك مع بعض زملائه الفنانين، وقد أبهرتني كثيرًا، فرغم صغره بالسن، فإنه عاش أكثر من حياة بتلك الصور، تمنيت لو أُصبح مثله بوقت ما، فعالمي محدود وصغير نوعًا ما مقارنة بعالمه، تحده الجدران وأغلفة الكتب.

فوجدته يقول لي: بالأسبوع القادم لديّ زيارة لمعرض فنان تشكيلي يكون صديقي وأريد التقاط بعض الصور لبعض أعماله، هل تريدين المجيء؟

وجدت نفسي أقول له: بالطبع سآتي حدد لي الميعاد وسأكون هناك (شعرت كأنني كنت بانتظار قوله لذلك)

فابتسم وقال: أو ربما أمر عليكِ وآخذكِ بسيارتي.

فابتسمت له بالإيجاب. مرت الأيام وجاء وقت المعرض وذهبت معه، كان جوًّا جديدًا عليّ بالكامل، أعجبتني كثيرًا اللوحات. وبعدها، قام الرَسام بدعوتنا على الغداء، كان يومًا مميزًا وتعرفت على عدد من الأشخاص الموهوبين وبعض أصدقاء أمجد وبينهم فتاة تُدعى (ناردين) وكانت مسؤولة الرحلات بالشلة على علم بكل القرى السياحية والأماكن الأثرية والفنادق، كانت بالنسبة لي كتطبيق الحجز على الهواتف الذكية، فتاة مليئة بالحياة كلٌّ منا يتمنى لو حصل على صديقة مثلها وكان خطيبها يُدعى أحمد ويشاركها نفس الشغف بالمغامرة، حقيقة استمتعت بصحبتهم كثيرًا، ووعدتهم بالمشاركة في إحدى رحلاتهم.

وأصبحت لا أفارق أمجد ولا هو يفارقني طوال النهار بالمجلة أو بالخارج لحضور عرض ما، حتى عندما نعود للمنزل، نظل نتحدث على الهاتف أو الشات مدة ساعتين أو أكثر، حتى يوم الإجازة كنا نقضيه معًا برحلة ما أو نحضر معرضًا للوحات. لم أكن أعلم ما مسمى علاقاتنا، ولكنني بدأت أعتاد وجوده بحياتي، وفي أحد الأيام، جاء لي وعلى وجهه ابتسامة عريضة وأخبرني أنه كان يراسل مجلة أجنبية منذ فترة للعمل معها، وقد أرسلوا إليه ردًّا أخيرًا،

وعرضوا عليه العمل معهم وأنه سيسافر الأسبوع المقبل لبداية عمله بالولايات المتحدة.

كان ينظر لي مبتهجًا ووجدت عينيَّ تدمع فجأة، فسألني: هل أنتِ حزينة لسفري والابتعاد عنكِ؟

فوجدت نفسي أجيبه: لا بل سعيدة لأجلك، إنها دموع الفرح لا أكثر، يبدو أنك سعيت كثيرًا؛ للحصول على تلك الفرصة.

فقال أمجد: نعم سعيت أكثر من اللازم، ولكن لا تقلقي، سأظل أحادثكِ وسأرسل لكِ صورًا كثيرة عن كل مكان أزوره كأنكِ معي تمامًا.

فوجدتني أقول وعلى وجهي ابتسامة مليئة بالحزن أكثر من الفرح: نعم كأني معك تمامًا.

مرت الأيام سريعًا، وحان موعد سفره وذهبت لتوديعه مع بعض أصدقائه بالمطار.

وحقيقة لم يُخلِف وعده ودائمًا ما يرسل لي الرسائل وكثير من الصور، ولكني أفتقد وجوده بحياتي وحديثه عن رحلاته ومغامرته التي لا أضجر منها. مرت الأيام حتى سئمت من الانتظار، فقررت أن أركز على عملي أكثر في ذلك الوقت، فربما أصبحت رئيسة تحرير في يوم ما، في تلك الفترة، تقدم لي الكثير من الأشخاص بالنسبة لمستواهم المادي والعلمي لم يكن بهم عيب. ولكن ذلك الشخص الذي يُعطي لكل صورة حياة ولكل حياة معنى مختلفًا، لم يصادفني. ربما أحببته ولا أدري، وربما أحببت الحالة التي لازمتني طوال معرفتي به. ولكن الأهم من ذلك أنني لم أفقد الشغف باكتشاف كل جديد حولي كما علمني هو....

أمنية عاشق

أبصرت الشمس على غير موعدها منذ أن ظهرت أمامي اليوم، فأحسست بدفء لطالما تمنيته ولم أشعر به من قبل، مع كل خطوة تخطوها تجاهي، أشعر بنسمة هواء رطبة تداعب وجنتيّ وكأنني على شاطئ بحر هائمة في زرقة الماء، فإن تجلس أمامي؛ لأجد قلبي يقفز فرحًا بداخل صدري، وكأن أعيادي كلها قد بدأت اليوم، وعندما أمسكت بيدي، تحولت كل الألوان حولنا إلى اللون الأبيض وكأننا نسير ممسكين بأيدي بعضنا وسط غابة شاسعة ممتلئة بأزهار النرجس البيضاء تُظهِر صفاء مشاعرنا وائتلاف روحينا؛ لنبدأ حديثًا لطالما أردنا سماعه. مر حوالي شهران منذ خِطبتي لمحمد ابن عمي، كان شابًّا طويلًا ذا شعر أسود وعين مكتحلة مائلة للسواد ووجه ناصع البياض يصبغ عليه القمر من نوره، وكان يعمل وكيل نيابة وكان يُحبني كثيرًا ويحضر لي الكثير من الهدايا وينتظر الإجازة بفارغ الصبر حتى يعود إلى القاهرة، فقد كان عمله بالإسكندرية، وكان مكان لقائنا المفضل كازينو الياسمين ويقع على شاطئ النيل المقابل لمنطقة الجزيرة، وكان يُخبرني دائمًا: لا أدري من أجمل منكِ يا عبير، فوجهكِ على صفائه يذكرني بالقمر ليلة يكون بها بدرًا وخصلات شعرك الذهبية تجعلني أهيم بهما ولا أرى أجمل من عينيك في صفاء لون العسل ودائمًا ما تُشعرني بأني أفضل من اللازم.

فأرد قائلة: بل أنا يا حبيبي محظوظة بأني أحب من هو مثلك فهي دعوة ربما دعاها لي قريب أو بعيد بظهر الغيب وتحققت باجتماعنا.

فكنت أنتظر يوم الجمعة بفارغ الصبر لكي نخرج معًا، فقد كنت طالبة بكلية التجارة بالسنة الثالثة، وكان يوم الجمعة إجازة لي أيضًا. وكان يصبرنا عن اللقاء مكالمتان أو ثلاث على مدار الأسبوع، ومع ذلك، نختزن الكثير من الشوق ليوم اللقاء؛ لنبدأ حديثًا مطولًا عن الحب وعن كل الأحداث التي مرت بنا على مدار أسبوع كامل من مواقف مضحكة أو محزنة، ولكنه دائمًا ما كان يجد طريقة ليبهجني بها، فكانت ابتسامتي معه لا تتوقف حتى كدت أخاف أن أحسد نفسي على تلك السعادة المختلسة.

وفي نهاية اليوم، كنا نذهب لمشاهدة فيلم بالسينما معًا أو الذهاب لحديقة الملاهي. فقد كنا أحيانًا طفلين ونستمتع بذلك لأقصى حد وكنا أحيانًا نتكلم كاثنين عاقلين شاهَدا الكثير في الدنيا ومرا بالكثير أيضًا. وكان أبي قد اتفق معه على أن يكون الزواج بعد إنهاء سنوات دراستي، فقد كان أبي يُلح عليّ بالمذاكرة كثيرًا حتى أحصل على تقدير مرتفع، وله الحق في ذلك، فكلما ذُكرت سيرة محمد ابن عمي، يراني شاردة وكنت أفكر به طوال الأسبوع، ويوم الجمعة أكون فيه كمن سافرت خارج الكوكب، ولكن أبي حذرني بأنه إذا لم أحصل على تقدير جيد على الأقل، فسينهي الخِطبة؛ لذلك حاولت التركيز كثيرًا حتى لا أفقد انتباهي، وحتى لا يستطيع أحد فصلي عن نصفي الآخر.

ربما كان أبي يراني أستاذة جامعية، ولكني كنت أرى نفسي موظفة ببنك تستقبل العملاء بابتسامة مشرقة على وجهها وتساعدهم في إتمام معاملاتهم، مرت امتحانات نصف العام على خير وحصلت على إجازة قليلة لنفسي، ربما إجازة للحب أكثر منها استعدادًا للنصف الثاني من العام وحجز محمد لي ولعائلتي شقة بالإسكندرية لقضاء الإجازة، ويمكننا عندها أن نرى بعضًا أكثر، فقد كنا نتقابل بعد انتهاء عمله، فنأخذ جولة على شاطئ البحر ممسكين بأيدي بعضنا، نتكلم ونضحك ونُلقي نكاتًا وكنا لا نشعر بتعب قدمينا حتى وإن كنا قطعنا الشاطئ جيئة وذهابًا لألف مرة، وزرنا مع بعض الكثير من الأماكن الأثرية كقلعة قايتباي والمسرح الروماني والفنار وأخذنا معًا الكثير من الصور كذكرى عن كل مكان وعن كل لحظة ابتسمنا فيها معًا. كانت لي أمنية وحيدة عندها أن تبقى تلك السعادة ما حيينا وألا يسرقها منا الوقت أو الظروف. انتهى أسبوع الإجازة كأنه حلم جميل عابر وعدت مع عائلتي، وبعد أسبوع آخر، كانت إجازة الدراسة قد انتهت وعدت للجامعة مجددًا وانشغلت بالدراسة وبقينا على موعدنا كل جمعة. كان محمد يحدثني دائمًا عن أحلامه في إكمال الدراسات العليا وطموحه في أن يبقى بعمله حتى يصل إلى رئيس نيابة كنت أنظر لعينيه أثناء حديثه يلمعان وهو يتحدث عن أحلامه ومستقبله، وكنت أخجل بأن أكون أقل من توقعاته؛ لذلك أصبحت أجتهد في هذا الفصل أكثر من ذي قبل، ومرت الأيام سريعًا وحان موعد الامتحان ومرت الأيام سريعًا وسط قلق وتوقعات من الكثيرين، ربما بعد انتهاء الامتحانات، شعرت أن حملًا ثقيلًا قد وقع من على

عاتقي، ولكن بقى الأهم وهو انتظار معرفة النتيجة، كنت لم ألتقِ بمحمد لحوالي أسبوعين ففكرت طوال يومين كيف أستعد لمقابلته وماذا سأرتدي، وجاء يوم الجمعة أفقت من النوم وأنا لا أشعر أني بخير، فقد راودني حلم سيئ ليلة البارحة، كأني سقطت بحفرة عميقة لا قرار لها وكل ما يحيط بي هو السواد، انتظرت مكالمة من محمد فكلمني حوالي الساعة العاشرة صباحًا، وأخبرني أنه بالطريق وسوف يمر ببيت أهله أولًا ثم يأتي إلى بيتنا بعد الظهر، انتظرته ذلك اليوم، ولكني كنت أشعر بضيق في
صدري، ولا أدري ما السبب؟

مرت فترة الظهيرة كاملة ولم يأتِ اتصلت به، فلم يُجب، فاتصلت بوالديه فأخبراني أنه لم يصل بعد وقد شعرت بالقلق، وطلبا مني إخبارهما في حال إذا مر ببيتنا أولًا، ومرت فترة العصر والمغرب وليس هناك خبر عن محمد، ظللت واقفة أتردد بين الباب والنافذة، وأسأل والدي هل اتصل محمد، أو أحد من بيت عمي؟ فيجيبني بالنفي.

حتى رن جرس الهاتف في حوالي العاشرة مساءً. وكان عمي فرد أبي، وظهرت على وجهه ملامح الصدمة. فسألته:
ماذا حدث يا أبي؟ هل محمد بخير؟
فطلب مني الجلوس فازداد قلقي أكثر وظللت أردد:
هل محمد بخير؟

فقال أبي: أعلم أنكِ مؤمنة بقضاء الله، لقد تُوُفِي محمد اليوم في حادث سير على طريق الإسكندرية. فرددت: ماذا؟

فبدى وجه أبي حزينًا وبكت أمي ولم أشعر بشيء فقط الظلام من حولي. لا أعلم إلى متى ظل مغشيًّا عليّ، فلم أعد أشعر بالوقت، وطوال الأيام اللاحقة، ظللت طريحة الفراش لا أتكلم، كل ما أفعله هو البكاء والنوم، رفضت الأكل حتى صرت هزيلة كل ما كنت أفكر به في ذلك الوقت هو الموت ليس إلا، لم أعد أهتم لنتيجة أو دراسة. كنت أحيانًا أقوم من نومي بمنتصف الليل أصرخ باسمه وكأنه جالس بالغرفة المجاورة وسيأتي ما أن يسمع صوتي، ولكنه لا يأتي فتأتي إليّ أمي في فزع؛ لتجلس بجواري، فتحاول تهدئتي وتقرأ لي آيات من القرآن حتى أهدأ وأنام.

مر حوالي أسبوع على تلك الحادثة وجاء عمي لزيارتنا وكان يحمل علبة مغلفة وجلس بجواري وتكلم قليلًا، ولكنني لم أتذكر ما قاله لي تحديدًا، وفي نهاية اللقاء، ترك لي العلبة وقال:

إنها كانت هدية من محمد وكان سيُهديها لي بزيارته وتمنى أن أجد لقلبي العزاء عن فقده، ورحل وعيناه ممتلئة بدموع تأبى النزول. جلست أنظر للعلبة حوالي ساعة وأنا خائفة من فتحها، ترى ماذا سيكون بها؟ وأخيرًا قررت فتحها؛ لأجد بها صندوقًا للموسيقى مُزَيَّنًا بالورود، ففتحته وقمت بإدارة المفتاح، فإذا بعروسين يهيمان ببطء أثناء الموسيقى وكأنهما بحفلة راقصة، وأسفل الصندوق، وجدت بطاقة قد كُتِب عليها (حبيبتي عبير اشتقت إليكِ كثيرًا. أتمنى ألا تفارق السعادة وجهكِ وقلبكِ للأبد، وحتى إن ابتعدت قليلًا، سأظل أفكر بك للأبد، أحبك) محمد.

لم أعلم ما الأبد الذي يتحدث عنه؟ فيبدو أن الأبد قد نفد الآن، وانهمرت من عينيَّ سيول من الدموع لم أدرِ إن كانت ستتوقف أم لا.

ومنذ ذلك اليوم، صرت أترجى مجرد رؤياه بأحلامي، فقد كان كمن غادر عالمي كليًا، وعندما كان لا يظهر، كنت ألتمس الصبر من رسائله، فهي ما تخبرني أن وجوده بحياتي كان حقيقة ولم يكن مجرد خيال.

وعندما مضى أربعون يومًا على وفاته، حلمت به ليلتها، كان ينظر لي في حزن وأنا أبكي، ويقول لي أهذا ما طلبته منكِ حقًا؟ هل يمكن أن تحققي لي أُمنيتي الأخيرة؟

قمت من النوم وبنفسي بعض الفزع، ولكني حاولت الهدوء والابتسام ولو قليلًا، ولكن يبدو أن الحزن قد طُبع بملامحي كثيرًا، فشفتاي تأبى السعادة بل كل جسدي يأبى ذلك، وطوال اليوم، أحاول الابتسام ولا تفلح محاولتي، وفي النهاية، لمحت وجهه أمامي يحكي لي إحدى نكاته، فوجدت نفسي أضحك بشدة حتى حسبني من حولي أُصِبت بالجنون، ذهبت إلى غرفتي وبحثت عن كل صورنا معًا، وعلقتها بجدران الغرفة وظللت طوال اليوم أتذكر لحظاتنا معًا، ولا أجد سوى الضحك.

فوجدت نفسي أنظر لصورته فأبتسم وأشكره؛ لأن خلال فترة حبي له لم أشعر بغير السعادة، فهو لم يجعلني أحزن قط؛ لذا ستكون تلك هديتي له، أن أشعر بالسعادة لأجله للأبد،

أحبكَ عبير.....

فتاة المقهى

أقف على حافة الجسر يتخلل الهواء البارد شعري، ويلامس وجنتيّ، وأنظر للفضاء الشاسع أمامي؛ لأجد ألوان الطبيعة تتشكل؛ لتكَوّن صورتك، فهناك شيء من بياض السحب بملامح وجهك، وشيء من سواد الليل بخصلات شعرك، في انتظار الفجر لبداية يوم جديد أبدؤه معك، تبدأ العصافير في الصحو مجتمعة حول وجهك كإكليل يُزَيّن وجه الأمير، وتبدأ الشمس في الصعود راسمة على محياك ابتسامة تُنير الفضاء من حولي، وتبدأ قطرات الماء في الارتفاع كالندى لتُطفئ لوعة الشوق إليك وتعيد إلى روحي سلامها وكأنها امتزجت بقلبي، فأراحته من طول الانتظار، وتبدأ وريقات أشجار الكرز الزهرية في التساقط مُشَكِّلة رياح خفيفة أرسلها إليك؛ لتحط على نافذة منزلك كل صباح معلنة عما يحمله القلب إليك، دقت الساعة العاشرة، وعليَّ الآن أن أستقل العربة لمقابلته وسط المدينة في مقهى صغير تملؤه قصاصات ورق لعشاق قد مروا به، فتأتي وأهمس لك: هل وصلتك رسائلي؟ لتخرج وريقة كرز من جيب معطفك.

وتقول لي: وهل أستطيع الامتناع عن استقبالها؟

أذكر المرة الأولى التي قابلته فيها، فقد تخرجت في كلية الفنون الجميلة، وكنت أذهب لذلك المقهى الذي يطل على النيل وكنت

أقوم بإخراج أدوات الرسم، وأنهمك في رسم لوحة لمنظر طبيعي أو لوجوه الأشخاص الجالسين بالمقهى، وكان هو يجلس في زاوية من المقهى يحتسي قهوته، في البداية، لم ألتفت إليه كثيرًا، ولكن تكررت زيارتي للمقهى من أجل الرسم وكنت أراه باستمرار سواء كان يجلس وحيدًا أو برفقة أحد من أصدقائه، وفي يوم التقت أعيننا، ولكني سرعان ما وجدت نفسي أدير وجهي؛ لأنشغل باللوحة التي أرسمها، وخلال لحظات، وجدته يقف أمامي.

ويقول لي: مرحبًا، أُدعى حاتم وأعمل معيدًا بكلية إدارة الأعمال، وأنتِ؟

فابتسمت وقلت: مرحبًا، أُدعى لارا وخريجة كلية فنون جميلة، سررت بمعرفتكِ.

فقال حاتم: هل تسمحين لي بالجلوس؟

فأجبته بالموافقة كان شابًا متوسط الطول ذا شعر أسود وبشرة بيضاء وأعين مائلة للسواد، بدأ ينظر لرسوماتي بشيء من الانبهار وأخبرني بأنها جميلة جدًا، وطلب مني أن أرسم لوحة له، فدائمًا ما كان يرغب بذلك، فوافقت.

أما أنا تلك الفتاة ذات الشعر الأسود ببشرة بيضاء وعين بنية فتاة بملامح عادية، بإمكانك أن تمر بجوارها بالشارع ولا تشعر بها، ولكن في ذلك الوقت تساءلت: ما الذي جعله يتكلم معي؟ ولماذا أنا بالذات؟

كانت لي عدة تجارب فاشلة في الحب أثناء دراستي بالجامعة، فدائمًا العين تعشق ما هو جميل، ولكن للقلب والعقل حسابات أخرى، فهما لا ينخدعان بسهولة كالعين، بدأ حاتم في الكلام أكثر

عن نفسه وعن حياته، وكنت أستمع له في صمت أثناء رسمي لوجهه، أحيانًا يكون كلامه بسيطًا جدًا، فلا يحتاج إلى تفسير. وأحيانًا يجعلني أضع خطًّا تحت كل كلمة يقولها لي، فقد تكون غامضة، كنت أحتار كثيرًا أثناء رسمه، فرغم سهولة الحديث معه، فإن ما تراه عين الرسام ينعكس على صورته، فقد يجعلها قبيحة وقد يجعلها أجمل من اللازم، ولكنني قررت أن أكون حيادية وأرسمه كما هو بدون تغيير ملامحه، ولكن ذلك جعلني أتأمل وجهه لساعات، فبدأت أشعر ببعض الغرابة حتى بعد أن أنهيت اللوحة وأعطيتها له وقد أعجبته كثيرًا وشكرني عليها، فكان إذا غاب يومًا عن المقهى، كنت أشعر بوحدة غريبة، هل لأنني اعتدت الكلام معه؟ أم أني أخاف اختفاء تلك الملامح من ذاكرتي؟

ولكنه ليس كأي شخص مر بحياتي من قبل، فهو يملك شيئًا من البراءة بحديثه، ربما كطفل صغير فلا أشعر بأنه مدرس بالجامعة بكثير من الأحيان. ولكنه شخص تشعر براحة للحديث معه وترغب لو استمرت محادثتك معه لساعات دون أن تمل، وربما أنا فقط من تشعر بذلك.

قررت أن أقلل من زياراتي للمقهى، فأنا أخاف أن أتعلق به، فمشاعري لم تعد تحتمل اللعب .

فذهبت للجلوس بمقهى آخر، ولكن طوال الوقت كانت صورته تظهر أمامي وكأنني احتفظت باللوحة التي رسمتها له، ومع أنها لم يكن لها نسخة أخرى سوى بداخل عقلي، لكنني بدأت أشعر بشيء من الامتعاض والحزن لعدم رؤيته، فقررت أن أتنازل عن غروري

قليلًا وأعود لمكاني بالمقهى القديم، فربما كان حبًّا حقيقيًا وربما يكون هو على استعداد لمبادلتي تلك المشاعر.

عدت للمقهى في صباح اليوم التالي وأخبرني الجرسون أن حاتم قد سأل عني بالأيام السابقة، فجلست وبدأت في إخراج أدوات الرسم وقلت في نفسي (ربما ما تبحث عنه يبحث عنك أيضًا)

بعد حوالي ساعة، وجدت حاتم قادمًا باتجاهي وجلس بجواري وبدأ يقول: لقد خِفتُ كثيرًا أن يكون قد أصابك مكروه ما، لماذا لم تأتِ للمقهى بالأيام الماضية؟

فصمت قليلًا ثم قلت: لا شيء، كنت منشغلة فقط، كيف حالك؟ وحال التدريس بالجامعة؟

فأجابني: كل شيء بخير، ولكن هناك شيئًا ناقصًا بغيابك عن المقهى... فابتسمت له وأكمل حديثه:

نظرت إلى وجهه في صمت، ولكن شعرت بشيء من الخجل بادٍ على ملامحه، فحاول تغيير الموضوع قائلًا: هناك صديق لي منذ أيام المدرسة يُقيم معرضًا للوحاته وأعطاني أكثر من دعوة. هل تودين الذهاب معي إلى هناك؟

فابتسمت له وقلت: نعم يسعدني ذلك.

ففرح بذلك كثيرًا وقال: لن تندمي على ذلك.

تواعدنا على اللقاء بعد يومين في تمام الخامسة مساءً أمام المقهى، حتى نذهب للمعرض معًا، وجاء الموعد وتأنقت كثيرًا أو ربما أكثر من اللازم، فقد كنت أرتدي فستانًا أسود وأضع مكياجًا حتى أنني ذهبت لكوافير ما لتصفيف شعري.

وعندما رآني حاتم، قال: اليوم أنتِ أجمل من المعتاد، سأخاف أن يخطفكِ أحد مني.

فابتسمت له وقلت: لا أعتقد أن أحدًا ما سيقوم بخطفي وأنا معك.

فابتسم وقال: أتمنى أن أظل عند حسن ظنكِ بي.

وذهبنا لمعرض اللوحات الخاص بصديقه، وكانت لوحات بها قدر من الجرأة لم أعهد بها من قبل، حتى أن صاحب اللوحات نفسه كان جريئًا، وكان طوال فترة تواجدنا بالمعرض ينظر لي نظرات لم تُعجبني كثيرًا.

كان يُدعى تامر وكان من نوع فتيان الجامعة شعر بُني طويل يرجعه للخلف وأعين بلون العسل مائلة للاخضرار وطريقة لبسه على الموضة، كان يأتي بين فترة وأخرى للترحيب بي وبحاتم ويتكلم معنا في أي شيء حتى أنه حاول دعوتي إلى الأتيليه الخاص به وأخذ رقم هاتفي، ولكنني كنت أحاول التهرب منه، فلم يُعجبني منذ الوهلة الأولى. فقد كان هناك شيء ينقصه وينقص كل من مروا عليَّ بالجامعة، جلست طوال السهرة، أقارن بينهم، فوجدت أن حاتم هو الشخص الوحيد الذي سأشعر معه بالاطمئنان والثقة.

في طريق عودتنا، قال حاتم: أعتذر عما سأقوله يا لارا، ولكن نظرات تامر لكِ لم تُعجبني كثيرًا.

فقلت: ولم تعجبنِ أنا أيضًا، فقد كانت الزيارة الأولى والأخيرة لمعرض صديقك، ويبدو أنني بالغت في هندامي كثيرًا.

نظرنا لبعضنا وأخذتنا نوبة من الضحك. ثم قلت له: هل سأراك غدًا بالمقهى؟

فأجاب بابتسامة: نعم بالتأكيد سأراكِ غدًا، وسأعد الساعات للقائنا غدًا منذ الآن.

ودعته بابتسامة وذهبت لمنزلي، وغادر هو. وتساءلت في نفسي عن معنى كلماته ولم أجد لها تفسيرًا سوى أن حبًّا ما سيلوح بالأفق قريبًا، وربما يغير مجرى حياتي للأبد.

في صباح اليوم التالي، ارتديت ملابسي كالعادة بدون تأنق زائد وذهبت للمقهى، فكنت أذهب قبل حاتم بحوالي ساعتين؛ لأكمل رسوماتي، فقد كان المقهى يطل على حديقة زهور في غاية الروعة.

وصلت إلى المقهى، وشرعت في البداية برسوماتي، وبعد حوالي نصف ساعة.....

وجدت من يقف أمامي ويقول: عذرًا، ولكن هل التقينا من قبل؟

فرفعت وجهي لأجد تامر يقف أمامي، فأُصِبت بشيء من الخوف وألم بالمعدة كمن أصابته سكين خادعة، فقد كان يحاول أخذ رقم هاتفي البارحة وكنت أتهرب منه، فكيف انتهى به الأمر لمعرفة مكاني.

قال تامر: أجل، لقد تذكرتكِ يا آنسة لارا، كيف حالكِ؟ هل أنتِ بانتظار شخص ما؟

وقبل أن أدعوه إلى الجلوس أو أرفض ذلك، كان قد جلس من نفسه.

وبدأ الحديث وقال: لقد اعتدت المجيء إلى هنا من قبل مع حاتم، فقد كان مكاننا المفضل وكنا نأتي لمراقبة الفتيات. ثم سأل: هل أنتِ هنا لمقابلة حاتم؟

ثم ضحك وقال: لم يتغير ذلك الشقي، رغم أنني تغيرت كثيرًا.

كنت أستمع لكلامه وأنا في حالة من الصدمة

ثم قال: لقد جئت أيضًا لملاقاة حاتم، فقد طلبت خطيبته مني رسم لوحة لها، وطلبت من حاتم صورة لخطيبته، ولكنه نسى أن يحضرها.

فقلت : ماذا؟ هل حاتم خاطب لإحدى الفتيات؟

فأجاب: نعم، فهو خاطب لابنة عمه منذ حوالي عام، وهي أيضًا معيدة مثله بالجامعة. ألم يُخبرك بذلك؟

فأجبته: ربما نسى ذلك لكثرة انشغاله، على العموم، لقد كدت أنسى أني واعدت صديقتي اليوم وقد تأخرت عليها لم أعطِ تامر فرصة أخرى للكلام، فجمعت أشياء وفررت من أمامه، ولكنني وجدته يلحقني ويطلب إيصالي، ولكني رفضت، فأصر كثيرًا ولم أجد مفرًا منه، فأوصلني لمكان قريب، وطوال الطريق، يُحَدثني عن حاتم وخطيبته وكيف التقيا؟ ومنذ متى وهما يحبان بعضهما؟ كنت أوشك على الانفجار، ولكني حبست دموعي من أن تسقط أمام ذلك الشخص.

فأوصلني ودخلت إلى المبنى وكان يُصر بأن ينتظر لإيصالي بعدها لأي مكان آخر، ولكني لم أستطع النظر في وجهه أكثر من ذلك، فقد كان شخصًا استفزازيًا وغير مريح بالمرة، فخرجت من باب للمبنى يُطِل على شارع آخر، أوقفت تاكسي وذهبت لبيتي وأنا في حالة من الصدمة

فقمت بغلق هاتفي حتى لا يستطيع حاتم الوصول إليّ، وقضيت طوال النهار أبكي

وأتساءل: هل كذبت عيناي عليّ مرة أخرى؟ ماذا فعلت له لكي يكذب عليّ؟ وهل هو حقًا سيئ الخُلُق مثل صديقه وقد وجدني صيدًا مناسبًا له فبدأ حفلته تلك؟ لم أعرف عندها ما الحقيقة وما الكذب؟ هل كان يجب أن أسمع منه أيضًا؟ ولكني لم أعد أعلم من الصادق أو الكاذب بينهم.

في الأيام التالية، لم أغادر منزلي ولا غرفتي، ولم أقرب فرشاة الرسم ولا الطعام، كنت كمن تُعاقِب نفسها على ثقتها بالبشر حتى لا تفعل خطأها مرة ثانية حتى أن أمي قلقت عليّ، وسألتني: إن كنت أُعاني خطبًا ما أو مرضًا ما.

فكانت إجابتي: أنا بخير يا أمي، فقط لا أُريد الخروج، أُريد الاستراحة بالمنزل عدة أيام.

بعد حوالي أسبوعين، جاءتني رسالة على البريد الإلكتروني من صديقتي سها أخبرتني أنها حاولت التواصل معي أكثر من مرة على الهاتف، ولم أُجبها، دائمًا تجد الهاتف مُغلقًا، وأنها قد اشتاقت إليَّ وتريد مقابلتي.

فقمت بالاتصال بها ودعوتها إلى منزلي، فجاءت سها وجلسنا نتحدث لساعات، وأثناء الحديث

قالت لي: هل تذكرين صديقتنا شذى منذ أيام الجامعة التي خطبت لصديقنا عمرو؟

فأجبتها: نعم أذكرها، كيف حالها الآن؟ لقد كانت موهبة رائعة حقًا

فأجابتني: ليست على ما يُرام، فقد تعرفت على رسام يُدعى تامر وله شهرة واسعة، وأخذت في وصف تامر ذلك، فأدركت أنه تامر صديق حاتم

وأخذت سها تُكمِل حديثها: لقد فرق بين شذى وعمرو إلى الأبد على ما أعتقد، فقد كان يستدرجها ويعدها بنشر أعمالها ضمن معرضه وفرحت لذلك كثيرًا، ولكنه في المقابل كان يُكثِر من مقابلاته معها.

وفي أحد الأيام، طلب من مصور تصويرها وهي جالسة تضحك معه، وأرسل الصورة مُرفقة بخطاب إلى عمرو خطيبها، وذكر به الكثير من الأشياء السيئة عن شذى، وصدَّق عمرو ذلك وفسخ الخِطبة، حتى أن شذى ترجته كثيرًا، لكنه لم يستمع إليها، ولكن شذى لم تحتمل ذلك فأصابها انهيار عصبي، ودخلت على إثره المشفى، وما زالت هناك، ولم يسأل حتى تامر ذاك عن شذى من وقتها.

فقلت: الأفضل ألا يسأل، فيبدو أنه شخص عديم الأخلاق

أكملنا حديثنا وطلبت منها أن تصحبني بعد غد لرؤية شذى بالمشفى ثم ودعتها وانصرفت.

بمجرد ذهاب سها، قمت بفتح هاتفي، وبعد ساعة، وجدت حاتم يتصل بي فقمت بالرد: مرحبًا حاتم، كيف حالك؟

فأجاب: لست بخير يا لارا، لقد اعتقدت أنكِ تركتيني للأبد، هل هنتُ عليكِ حقًا لتتركيني لوساوسي كل ذلك الوقت؟ حتى أنني مررت من أمام منزلكِ أكثر من مرة، ولكني شعرت بالإحراج الشديد، فلم أستطع القدوم لمحادثتك. هل ما شعرت به تجاهك كان كذبًا، ولم تبادليني نفس المشاعر كما ظننت؟

فقلت: عذرًا حاتم، لقد حدثت الكثير من الأشياء، أُريد أن أقابلك بالغد، ولكن أُريد أن أُقابلك بمكان لا يعلم به صديقك تامر الرسام.

فسأل: وما شأن تامر بذلك؟

فأجبته: ستعلم كل شيء بالغد، فاتفقنا على المكان والزمان وودعته وأنهيت المكالمة في الغد، وفي الموعد المُتَّفَق عليه، قابلت حاتم وأخبرته بكل ما حدث، فاعتذر مني كثيرًا.

وقال: أعتذر يا لارا عما حدث؟ فقد كنت أظنه أصبح شخصًا مُحتَرَمًا، ولكن هناك أشخاص من الصعب تغييرهم. وأخذ يُخبرني أن والدة حاتم قد هربت مع رسام ما، ومنذ ذلك الوقت وهو يشك بكل النساء، ويحاول إفساد علاقات كل من حوله، كنت أظن أنه سيعاملني بأسلوب آخر، فقد كنت صديقه على ما أظن، لكن يبدو أني أخطأت، لقد ندمت الآن على الاستمرار بمصاحبته وسأصلح خطأي.

فأخبرته أيضًا عن شذى وخطيبها وما حدث لهما، فأخبرني أنه سيفعل أي شيء لكي يُصلِح علاقتهما معًا، فقمت بالاتصال بسها وأخذت منها رقم عمرو وحددت معه موعدًا، وذهبت للقائه أنا وحاتم ووضحنا له كل ما حدث، وأن تامر شخصية سيئة جدًا ودائمًا ما يتصيد الفتيات الجميلات ويُفسِد لهن حياتهن، فحزن عمرو لذلك كثيرًا وحزن أكثر من نفسه لعدم ثقته بحبيبته.

وقال: سوف أذهب للمشفى بالغد، ولن أغادره حتى تصفح عني شذى، وتواعدت أنا وحاتم على اللقاء غدًا، لزيارة شذى بالمشفى معًا، ووافق على ذلك.

وفي اليوم التالي، قابلت حاتم وأخبرني أنه ذهب ليلة البارحة لمنزل تامر وتعاركا معًا، وإنه اعتذر منه وقال : إنه لن يكرر فعلته، لكن

حاتم لا يصدقه، فهو مفقود الأمل منه في أن يتغير وقطع علاقته به للأبد.

ذهبنا مع سها للمشفى لزيارة شذى وعرفت أصدقائي بحاتم، ووجدنا عمرو عندها قد أحضر لها الكثير من باقات الورود يحاول مصالحتها، ولكنها لم تصفح عنه، لكنه قال: إنه لن يغادر المشفى حتى تسامحه (وتعلمنا جميعًا الدرس بأن علينا أن نثق بقلوبنا وما تشعر به أكثر مما نثق بالأشخاص)

وفي طريق العودة، قال حاتم: لقد أدركت يا لارا اليوم أني لم أُهديكِ وردًا منذ أن تعرفنا ببعضنا، وفي الطريق، أهدى لي باقة زهور رائعة الجمال، وطلب مني تحديد موعد لمقابلة أبي، وطلب يدي، ففرحت لذلك كثيرًا.

وفاتحت أبي ووافق على مقابلته، وبعد حوالي أسبوع، كانت حفل خِطبتنا وحضر كل أصدقائنا اللذين نثق بهم، وتعاهدنا على ألا نسمع سوى لقلبينا فقط وألا نقتسم غير السعادة دائمًا وألا يكون هناك مكان للشك بحياتنا.

مر الآن حوالي عام على خِطبتنا ونحن نعيش أجمل لحظاتنا السعيدة معًا كطائرين دائمي الشدو والغناء نحلق معًا من مكان لآخر ونرى الدنيا بأعين بعضنا أعين جديدة لا ترى سوى الجمال الذي تحتويه الأشياء، وكثيرًا ما يلح عليّ حاتم لإتمام الزواج، ولكني أنتظر إنهاء لوحات معرضي الأول، ورغم ذلك، لا نختلف، فحبنا أقوى من أي خلاف.....

حكاية عشق

بلغني أيها الملك الهمام ذو الرأي الرشيد أنه بمملكة بعيدة من ممالك المشرق كان هناك ملك شاب شاعر يُدعى نعمان، وكانت أبيات الشعر تُزَيّن أسقف قصره وجدرانها، فكان إذا سمع بيت شعر جميلًا يأمر بخطاط القصر؛ ليدونه على أحد الجدران وكان يختلف شكل طلاء بيت الشعر بحسب طربه ومدى جمال معانيه، فهناك ما يُكتَب بماء الذهب وآخر بماء الفضة وهناك ما يُكتَب بتراب الزعفران، وفي أحد الأيام، كانت هناك مبارزة شعر بوسط المدينة وتعالت الصيحات والتهليل لذلك الشاعر المُلَثَّم الذي جاء من بلاد بعيدة يحكي أشعارًا عن العشق والحب، فقد هزم كل الشعراء في ساحة المدينة وقتها حتى وصلت أخباره إلى القصر، فتعجب الملك في أمر ذلك الشاعر وأراد أن يستمع لِمَ يقول فإذا ما أعجبه شعر هذا الشاعر، فبإمكانه أن يضمه إلى شعراء القصر الملكي، ولكنه كان يريد التأكد بنفسه، فسَر بالأمر لأحد الحراس فأخبروه أن ذلك الشاعر يرفض مقابلة أي كان في بيته، فلقد سبقوه كبار التجار بدعوته إلى حفلات عشاء بديارهم فلم يرضَ.

ففكر الملك قليلًا ثم قال : حسنًا، لنذهب نحن إليه بإمكاننا التخفي في زي أحد التجار ونذهب إلى الساحة لسماعه، فإذا كان ما يقولون عنه حقًا، نظرنا إن كان له طلب ونفذناه، وإن لم يكن مثلما يقولون عنه، فلن نتكلف عناء إقناعه. وذهب الملك متخفيًا

بزي أحد التجار هو وبعض حراسه إلى الساحة. وما أن جاء الوقت حتى ظهر الشاعر كان يرتدي عباءة فضفاضة وملثم الوجه، لا يُبَيِّن منه سوى عينيه، ويا لهم من عينين، فتعجب الملك وقال في نفسه: لم أرَ عينين كالليل المكتحل مثل هاتين العينين من قبل ترى من هو هذا الشاعر؟ وما إن بدأ الشاعر المُلَثَّم بقول أبيات الحب حتى عَلَّق شيء بقلب الملك وشعر بأنه بعالم غير العالم، وبدأ يطرح على نفسه كمًّا كبيرًا من الأسئلة: ترى هل هناك حب بهذا القدر حقًّا؟ يبدو أنني لم أعِ كل معاني الحب حتى الآن أو ربما من أسمعوني أشعار الحب حتى الآن كانوا يُبخِسون الحب حقه؟ فهل هناك فتنة بالحب وولع بالقلب وروح طائرة بسماء الحب تماثل مثل هذا القول؟ ظل الملك نعمان هائمًا بخياله إلى أن انتهى الشاعر من إلقاء قصيدته. وتساءل ماذا يفعل؟ فإذا بالشاعر يجمع أشياءه ويرحل سريعًا، فيهرول الملك وراءه ووراءه الحراس، ومن زقاق إلى زقاق ومن شارع إلى شارع حتى يختفي الشاعر المُلَثَّم بداخل بستان، ولكنه ينسى أن يغلقه. فيأمر حراسه بالانتظار خارجًا، ولكنهم يقاطعوه كيف نتركك يا جلالة الملك وحيدًا بصحبة الشاعر ونحن لا نعرف عنه خبرًا؟ ماذا إن أراد بك سوءً؟

فيجيبهم الملك: أنسيتم أنني على علم بالمبارزة ولم أخسر نزالًا قط؟ ولقد أحضرت سيفي معي، وإذا احتجت لكم، سأناديكم. فأجابوه السمع والطاعة يا مولاي. ففتح الملك الباب وبدأ يمشي داخل البستان فإذا بالشاعر يقف أمامه ويعطيه ظهره، وإذا بالشاعر الملثم يخلع العمامة عن رأسه ويتدلى من رأسه شعر أسود طويل بطول الليل وإذا به يخلع العباءة، فيُبَيِّن زيًّا نسائيًّا أبيض مُرصَعًا

بياقوت أزرق، فيشعر الملك بالصدمة ويسرع للاختباء وراء أحد الأشجار وينتظر في ذهول ويتساءل أهو حقًا فتاة؟.... أقصد هي وما أن تشعل الفتاة مصباحًا بالحديقة ويتسرب إلى وجهها الضوء حتى تحسبه قمرًا كبدر التمام. وظل الملك واقفًا يراقبها في صمت. وإذا بها تجلس وسط قبة من الزجاج مُزَيَّنة بالزهور وتبدأ في ملامسة أوراق الورود وإنشاد الشعر وكأنها تتخَيَّل حبيبها أمامها، فيهمس الملك لنفسه: ما رأيت جمالًا كهذا من قبل ولا صوتًا كهذا، يبدو أنني وجدت ذلك الحب الذي لطالما بحثت عنه. ماذا أفعل الآن؟ أأظل واقفًا هنا أم أعرف عن نفسي لها؟

فاستجمع قدرًا من شجاعته وخرج من وراء الشجر واقترب منها، فما أن وقعت عيناها عليه، فصرخت وقالت: من أنت؟ فأجاب يطمئنها: أرجوكِ لم آتِ لأُلحِق أي شر بكِ. وما هي لحظة حتى امتلأ المكان بالحراس يسألون هل أصابك مكروه يا جلالة الملك؟ فيجيبهم لا أنا بخير، لقد كان سوء فَهم، يمكنكم الانتظار بالخارج وأصر على ذلك، فأجابوه: سمعًا وطاعة يا مولاي.

فانصرف الحراس للخارج وما أن سمعت الفتاة بالحراس ينادونه بجلالة الملك حتى جثت على ركبتيها وقالت: عذرًا جلالة الملك، لم أكن أعلم أنه أنت حقًا وإلا لِمَ تصرفت هكذا. أرجو أن تعذر حماقتي. فأمسك الملك بذراعيها على مهل وساعدها على النهوض قائلًا: لا بأس، فلقد أخفتكِ، فأنا مَن يحق عليه الاعتذار. وما جعلني أتي وراءك هو كلماتك الرائعة، فلم أسمع بها من قبل. ما اسمك؟ ومن أين جئتِ؟

فأجابته: أما اسمي، فهو قطر الندى وقد جئت من بلاد الحجاز. فرد الملك باسمًا لم أسمع بالاسم من قبل، ولكنه اسم جميل. ولكن كيف انتهى المطاف بكِ ملثمة ومُتَخَفِّية ببلد غير بلدكِ.

فأجابته قطر الندى: أما حكايتي جلالة الملك، فقد أحببت الشعر منذ الصِغَر ولم يسمح لي والدي بإلقائه، فكنت أستمع لمجالس والدي في المساء وأذهب لدار خالي، فيترك لي مكتبته من الشعر أطلع عليها طوال النهار، إلى أن أتقنت الشعر وأجدت فيه وما أن علم والدي حتى أخبرني أنها حرفة الرجال ولا يجوز لي ممارسته.

وأمرني بالزواج من ابن عمي، ففكرت كثيرًا ولم أجد بُدًّا سوى الهرب لأفعل ما أحبه حقًّا، فهربت من البيت صباح يوم الزفاف ومن وقتها وأنا أتنقل مُلَثَّمة من بلدة لأخرى. لكي لا يكتشفوا أمري، ولم أشأ الإفصاح عن هويتي حتى لا يلاحقونني. عذرًا جلالة الملك، فلم أقصد الكذب على أحد. فابتسم لها جلالة الملك وأخبرها أن ما فعلته هو الصواب، فنحن لا يمكننا اتباع قلوبنا كل يوم فهي فرصة نادرة. وكجزاء على صبرك على ما ذكرته لي، اسمحي لي أن أدعوكِ إلى حفلة لإلقاء الشعر في قصري مساء الغد، سوف أرسل لكِ عربة تُقِلُّكِ بالغد، ومعها حراس ويمكنكِ أن تظهري بطبيعتكِ في قصري وسوف أقدمكِ لشعراء كُثر. أرجو أن تقبلي دعوتي.

فابتسمت عينا الفتاة وقالت: أحقًّا جلالة الملك سأكون شاكرة لك ما حييت، فلطالما رغبت بالاستماع لشعراء بغداد ورؤية قصورها. بل أنا مَن سيكون شاكرًا لكِ، فوَدَّعها الملك بابتسامة وانصرف. وظلت قطر الندى مستيقظة طوال الليل تُفَكِّر بِمَ ستُلقيه من شعر وهي في غاية السعادة. وعلى الجانب الآخر من

البستان، ظل الملك مستيقظًا بقصره طوال الليل يفكر بقصيدته لتلك الفتاة التي سرقت قلبه وطلع الصباح وسكتت حُسن زاد عن الكلام المباح على أن تكمل ما بدأته بالغد.

بلغني أيها الملك الهمام ذو الرأي الرشيد أنه في الصباح الباكر لليوم التالي أمر الملك بأن تُجَهَّز حديقة القصر بأفضل البُسط من الحرائر وأن تُفرَش الممرات بأوراق الورد وأن تُلمع التماثيل وأن تضاء الشموع ليظهر القصر في أبهى صوره كما لو كان يقام زفاف وليس حفلًا للشِعر، وأمر الخدم بتجهيز صنوف الطعام والشراب وأن يُعَطَّر الشراب بماء الورد والريحان. وما زالت التجهيزات على قدم وساق حتى حل المساء. أما بالجانب الآخر من المدينة بالبستان، جلست قطر الندى تُمَشِّط شعرها وتُزَيِّنه بالورود وجهزت زيًا كان قد أهداه لها والدها بعد أن عاد من قافلة لبلاد فارس. وكان من الحرير الأخضر منمقًا بزمردات صغيرة، وكان معه غطاء للرأس من الحرير الأسود وما أن أتى المساء حتى تزَيَّنت وتعَطَّرت واستقلت العربة حتى وصلت إلى قصر الملك نعمان. وما أن وصلت حتى أرشدها الخدم لحديقة القصر، فإذا بالملك في انتظارها. فانحنت بين يديه تُحَيِيه، فرَحَّب بها أيما ترحيب: مرحبًا بالشاعرة الجميلة.

فأجابته على استحياء: مرحبًا يا جلالة الملك الهمام. كيف الحال؟

فأجاب الملك بأحسن ما يكون طالما شَرَّفتنا بحضورها بدر التمام. فابتسمت وقالت: هذا مِن لطفك يا مولاي. ولكن تساءلت: ألم يأتِ الشعراء بعد؟ فأجاب الملك: في الحقيقة، طلبت منهم التأخر قليلًا، فقد كنت أكتب قصيدة ما وأردت أن أُطلعك عليها أولًا لكي أستفيد بخبرتك، فمثلك لن تجاملني مثلما يفعل شعراء القصر.

فتبسَّمت وقالت: لا تقلق يا مولاي، لن أكون مجحفة بحقك. فابتسم الملك وبدأ في إلقاء قصيدته عن الحب والشوق، ومع كل كلمة، كانت تلتمع عينا الفتاة وتهيم بخيالها مع سحر الكلمات، وبقيا على هذه الحال ما بين إلقاء وكلام ومبادلة البسمات والملاحظات إلى أن صاح الديك معلن قَبول الصباح. فتنَهَّت قطر الندى عذرًا جلالة الملك، فلم أشعر بمرور الوقت، فأنا أفقد الشعور بالوقت، عندما يبدأ الحديث عن الشعر.

فأجابها الملك مبتسمًا: يُسعدني ذلك، بإمكانك أن تبيتي بالقصر اليوم، فهناك غرف كثيرة شاغرة وسأخبر الخدم بأن يجهزن إحداها لكِ؛ لتستريحي قليلًا فالوقت متأخر. شكرًا لجلالتك، ولكن... فأجابها: هذا رجاء مني، فلن يُزعجكِ أحد هنا، وما دمتِ ستصبحين من شعراء القصر، فيحق لكِ ذلك وسأُعَيِّن لكِ حراسًا حتى تكوني مرتاحة البال. فأجابته بابتسامة وقالت: أويقلق من يسكن قربك يا مولاي. فابتسم وقد افتتن بجمالها ونادى الخدم لكي يرشدوها إلى حجرتها وذهب كلٌ منهم في طريق، ولكن يشغل باله الآخر. وأدرك حسن زاد الصباح فسكتت عن الكلام المُباح.

٣

بلغني أيها الملك الهمام أن قطر الندى في اليوم التالي تعَطَّرت وتزينت وأرادت مقابلة الملك، فقد أُخذت بحديثه عن الشعر وأرادت أن تحكي معه أكثر، ولكن الخدم أخبروها أن الملك منشغل باجتماع مع وزير البلاد وبعض التجار وطلبن منها الانتظار لحين يُنهي الملك اجتماعه، فالملك أيضًا يريد مقابلة قطر الندى في موعد العشاء. ظلت قطر الندى تنتظر طوال اليوم وهي حائرة تتنَقَّل ما بين الشرفة وباب الغرفة وتراقب حديث الملك مع وزيره وكاتبي ديوانه من شرفة الغرفة وتنظر إليه في إعجاب، وأحيانًا تسامر بعض الخدم فإحداهن تحكي لها عن حفلات القصر ومبارزة الشعراء، وإحداهن تحفظ بعضًا من الشعر فتُلقي عليها منه وتذكر لها اسم قائل البيت وصفاته، حتى شعرت قطر الندى كأنها من سكان القصر منذ زمن، ولقد أُخذن الخدم بجمال قطر الندى ورقتها وجمال إلقائها للشعر وتمنين لو يحظين بسيدة للقصر مثلها. جاء الموعد للعشاء وفُرِشت البسط ووُضِعت الأواني من الذهب والفِضة ومُلئت بأشهى ألوان الطعام وألوانه، وانتظر الملك نعمان قطر الندى إلى أن تأتي وتشاركه الطعام، فأطلت عليه في ثوب أحمر مزين بياقوتات حمراء ويغطي شعرها غطاء أسود من الحرير وتلتمع عينها المكتحلة بضوء القمر، ومع كل خُطوة تقترب فيها منه، يشعر بأن قلبه يخفق بشدة وكأنه كان يبحث عن شيء طوال حياته وقد وجده أخيرًا. فبدأا في تناول العشاء يتبادلان الحديث

عن الشعر ونظرات خاطفة تجري بينهما، وأخبرها الملك نعمان أنه يريد أن يصحبها بجولة بمكتبة القصر بعد انتهاء العشاء. وتوجها إلى المكتبة فإذا بها قاعة كبيرة لا تستطيع رؤية أُخرها بأرفف من خشب الأبنوس والسقف مُزَيَّن بثريات من الكريستال والذهب تعطي المشهد جلالًا وكأنه قصر آخر داخل القصر، أما أرفف الكتب، فمُصَنَّفة حسب الحضارات التي أتت منها، وكل ركن مُصَنَّف بحسب الأبجدية، أما بلاط المكتبة كأنه زجاج تستطيع رؤية انعكاس صورتك من خلاله، وهناك عدة أرائك من ريش النعام للجلوس عليها، كل هذا وعينا قطر الندى تلمعان من الفرح، فهي لم ترَ شيئًا بمثل هذا الحُسن من قبل، وزادت فرحة قطر الندى، عندما أخبرها أن المكتبة ستكون تحت تصرفها منذ الآن، فتستطيع أن تأتي إليها بأي وقت. وبإمكانها قراءة الكتب وقتما تشاء. وسيكون الملك سعيدًا جدًا، إذا ناقشته في بعض الكتب وهو على استعداد للإجابة عن كل استفساراتها. ومرت الأيام على تلك الحال ما بين حفل للشعر وغوص بأعماق حضارة ما ومعايشه عادات شعوبها وقبائلها. حتى توطدت العلاقة أكثر ما بين الملك نعمان والشاعرة قطر الندى، فعاشا معًا أيامًا هانئة بين قراءة الشعر ومقابلة الشعراء وزيارات المكتبة والحديث معًا، إلى أن جاء أحد الأيام واستجمع الملك بعضًا من شجاعته وقرر الاعتراف بمشاعره لقطر الندى وأن يطلب يدها للزواج، وبأحد الأيام أثناء تواجدهما بالمكتبة، صارح الملك نعمان الشاعرة قطر الندى بغرامه بها، وأنه لم يصادف حبًا من قبل بإمكانه أن يزلزل كيانه أو أن يؤرق نومه، ولكن منذ لمح عينيها للوهلة الأولى.... تلك العينان التي

تستطيعان إيقاف الزمن وتغيير معاني الأشياء، فشعر بالحب يعصف به وبكيانه منذ النظرة الأولى، ولكنه أراد التأكد من مشاعره ومن قَبول قطر الندى له، وأنه يريد الزواج منها وفرحت بذلك كثيرًا وأخبرته أن حبه بالنسبة لها كان كماء الغيوم فغسل عن قلبها كل حزن وهم مر بها، وأن قلبها أزهر بحبه وصارت الحياة تملؤه ويتمنى أن يومًا ما سيبادلها الملك نفس الحب وربما حبًا أكبر منه، ولكنها خافت على أبيها ومنه حيث تركته حزينًا بعد هربها من بيتها، فهي تخشى أن يسعى لقتلها هو أو أحد أبناء عمومتها، فأخبرها الملك أنه سيتكفل بحمايتها وسيتم الزواج بموافقة والدها وحضوره. وأرسل الملك رسالة إلى والد قطر الندى يخبره فيها ما حدث وأنه ينوي الزواج من ابنته بعد موافقته، ويريد أن ينول زواجهما مباركته وأرسل الملك مع المرسال قافلة من الهدايا وعدة هوادج حتى إذا ما وافق والد قطر الندى، فبإمكانه هو وأهلها أن يأتوا إلى بغداد ليشهدا العُرس معًا..

وبعد عدة أيام، وصل النبأ إلى والد قطر الندى واستشار كبار العائلة، فحزن ابن عمها كثيرًا، ولكن والد قطر الندى يعرف شخصية ابنته وعِنادها، فهي لم تكن حتى لتوافق على ملك، إذا لم تكن أحبته وأُعجِبت به، فانتهى إلى الموافقة على العرس وأقام احتفالًا بمنزله وتبادل التهاني مع الأقارب والأصحاب والجيران، فابنته الغالية ستُصبِح زوجة ملك بغداد.

وذهبت عائلة قطر الندى مع قافلة الملك لبغداد، فاستقبلهم أحسن استقبال وأكرمهم أيما إكرام. وتم الزواج وتعاهد الملك نعمان للشاعرة قطر الندى مَن أَسَرت قلبه بالحب والوفاء وبأن يهيم بحبها هي فقط وللأبد، ورُزِقا بعد عام بولد وفتاة وأسميا الفتاة غنوة والولد فارس تكريمًا لحب الشعر الذي جمعهما وأَلَّف بين قلوبهما.

حالة من الجنون

أجلس على سريري وأحدق إلى السقف لا أدري أكان الوقت نهارًا أم ليلًا فالغرفة ليس لها نافذة، فهي غرفة مستطيلة الشكل بها سرير من الحديد كأسرة المستشفيات ومرتبة متهالكة ربما نام عليها الكثيرون من قبل حتى أصبحت بهذا الشكل جدران الغرفة تتسم بالبياض ويمتلك السقف بعض فتحات التهوية، وهناك ضوء النيون المرتشع وكأن دواية المصباح معطلة ويجب تغييرها، ألححت عليهم كثيرًا لإصلاحها وقلت بإمكاني إصلاحها لكم مجانًا، ولكنهم لا يستجيبون لي أبدًا، فقد عانيت ذلك الضوء، فعيناي تؤلماني كثيرًا، فأقضي أغلب النهار وأنا مُغمِض العينين أو أنام على جنبي الآخَر حتى لا يكون الضوء مركزًا على وجهي. في الصباح الباكر، يُحضرون لي الإفطار قطعة جبن وشريحة خبز، ألححت عليهم مسبقًا في تذوق كوب من الشاي، لكنهم لم يجبوا كالعادة. مع الإفطار هناك حبتي دواء واحدة خضراء وواحدة صفراء، عندما كنت أرفض أخذ هذا الدواء، كانوا يرسلونني لأخذ جلسة كهرباء وكنت أرقد بعدها طريح الفراش يومين أو ثلاث واهن القوى وغير مدرك لِمَ يدور حولي فقط أحدق في الفضاء أو لا أملك القدرة على فتح عينيَّ من الأساس؛ لذلك قررت الخضوع وأخذ حبتي الدواء، على الأقل، سيصبح لديّ عقل ما. أفتقد كثيرًا الجلوس في المقهى البلدي المقابل لمنزلي وتناول السميط من عند عم حسن البائع

وصوت عم جمعة وهو يحضر لي الشاي ويقول تفضل يا بشمهندس، ولكن مجرد الحلم بذلك أصبح مستحيلًا.. لم أعد أعرف الأيام ولا حتى أعدها، لقد سئمت من طول الانتظار، ولأنني مشاغب نلت توصيات كثيرة فأحضروني لهذا الجحر المنعزل حتى أني فقدت الكثير من وزني. كلما أنظر للمرآة، أتساءل في عجب: من هذا؟

أحيانًا أسمع أصوات كثيرة من غرف مجاورة، فهناك امرأة تنتحب كثيرًا ولا تسكت حتى يعطوها جلسة كهرباء هي الآخرى، ورجل دائمًا يتحدث إلى نفسه بصوت عال وكأنه يتكلم مع أحد آخر، أحيانًا يصرخ وأحيانًا يشبه صوته الصمت. وفي منتصف الليل أحيانًا أسمع صوت الممرضين يجرون شخصًا ما بالممر وكأنه جثة هامدة لا يقدر على المشي مثلهم. أسمع الآن صوت الإنذار فقد حان الآن موعد الغداء، فهنا يحق للمجانين أمثالنا بوجبتين فقط في اليوم في الغالب يكون الغداء أرز ممزوجًا بخضروات وله رائحة كريهة لا تكاد تلمس الطبق إذا قُدم إليك.

ولكني مع الأسف لا أملك خِيارًا آخر، فليس هناك أكل غيره، ولكن في جمعتين من الشهر يقدمون لنا الدجاج. كنت أظن تقديمه لنا يوميًا، فأول يوم لي هنا كان يُصادف يوم الجمعة، ولكني أدركت ذلك مؤخرًا بعد الملاحظة والعد، فقد حصلت على قطعة طبشور من حديقة المشفى فأحضرتها لغرفتي وصرت كلما أردت حساب شيء، علمت علامات على الحائط، فهم لا يسمحون لنا هنا بأوراق وأقلام. ربما يخافون من أن نقدم بلاغًا عنهم للشرطة. ولكن كيف تقدمه فأسوار المشفى بعضها يعلوه أسلاك شائكة أو كسر من

الزجاج ولقد سمعت كثيرًا عمن حاولن الهرب قبلي، فكلهم أُصيبوا بخيبة الأمل والجروح، نعم سيدي، لقد حصلت على فرصة للهرب، وقبل أن أُنَفِّذ خطتي، فتن عليّ مجنون آخر فنلت حصة وافرة من الكهرباء، فنمت على إثرها أسبوعًا كاملًا وكانت المرة الأولى؛ لذا لم أفكر البتة في إعادة الكرة مرتين، فعندها سأصبح مجنونًا حقًا. ولكن ما يزعجني أنهم يتكرمون علينا بالاستحمام مرة واحدة فقط في الأسبوع. ويكون الوضع أكثر إزعاجًا خصوصًا عندما تشتد حرارة الجو، فتُصبِح رائحة الجسد لا تُطاق. حتى أنني فكرت أن أكتب طلبًا لصاحب المشفى لعله يزيد مرات الاستحمام لمرتين بدل مرة على الإقل بفصل الصيف، وبعد أن كُتب الطلب بعد سرقة ورقة من دفتر الممرض ورميها تحت باب المدير ووقعت فاعل خير. فقامت المشفى على قدم وساق، وطلب مدير المشفى التحقيق مع الجميع وتوعد الممرضون لجميع المرضى بجلسات كهرباء فأخذتني شهامتي للاعتراف، فلم أشأ أن ينال أحد آخر العقاب بدلًا مني لطلبي أبسط حقوقي.

نسيت أن أُقَدِّم لكم نفسي أُدعى أحمد وأبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا أو ذلك كان سني عندما دخلت ذلك المشفى. ابن لأب ثري يعمل في مجال العقارات ولديّ أخ وحيد أكبر مني يُدعى محمود، ولكنه على العكس تمامًا من اسمه. كُنت طالبًا مجتهدًا وحصلت على مجموع عال بالثانوية والتحقت بكلية الهندسة، كنت أهتم كثيرًا بمذاكرتي ودروسي، وكان أبي يقدم لي كل الدعم ولم يكن يبخل عليّ بشيء ودائمًا يفخر بي أمام زملائه بالعمل. كان أبي قد بدأ العمل مقاولًا صغيرًا ثم امتلك المال الكافي لشراء قطعة

أرض وقام بأخذ بعض من مقدمات الحجز من بعض المشترين وشرع في بناء أول عمارة ثم توالت الخيرات بعد ذلك حتى أصبح أبي صاحب شركة مقاولات كبيرة وكان أخي محمود ابن أبي الأكبر والمدلل وكان خريج كلية تجارة وأصر والدي بعد تخرجه أن يعمل معه لكي يشرب سر الصنعة ويُصبح صاحب شركة في يوم من الأيام مثل أبيه، كنت لا أهتم كثيرًا للعمل بالشركة، فقد كنت أريد أن أُعين بالجامعة معيدًا، فدرست جيدًا وأخلفت ظن أبي، فلم ألتحق بقسم معماري، ولكني التحقت بقسم ميكانيكا، أنهيت دراستي جيدًا وحصلت على تقدير مُرتفع وتحققت أمنيتي بالتعيين في الجامعة معيدًا، ولم يطل حزن والدي طويلًا فقد كان فرحًا لأبعد حد ولا تمضي الفرصة، عندما أجلس معه وسط زملائه بأن يخبرهم ابني دكتور الجامعة وكانوا يفرحون للحديث معي ومبادلتي التهنئة، بعد عملي معيدًا بعدة سنوات، تعرفت على زميلة لي بالقسم كانت تصغرني بعام واحد، وكانت شديدة الجمال، فوقع حبها بقلبي، كما يقولون حب من النظرة الأولى فأصررت على الارتباط بها وفاتحتها بالموضوع، فوجدت قَبولًا من ناحيتها، فحددت لي موعدًا مع والدها، وذهبت أنا وأبي لطلب يدها، ولكن محمود لم يذهب معنا، فقد صار يعاملني بجفاء شديد وتحجج بأن لديه عملًا. مضت الخِطبة في سلام ومر عام وأنا في منتهى السعادة تكاد قدماي لا تلمس الأرض.

وكان أبي قد تقدم لمناقصة كبيرة واستثمر بها الكثير، ولكنها للأسف لم ترسُ عليه، فحزن والدي حزنًا شديدًا ولم يتحمل ذلك، فتُوُفّي والسبب أزمة قلبية. عندها، لم أكن أقابل محمود سوى

مصادفة، فهو ينوي تعويض خسائر والدي، مهما حدث. ولكن أمي لم تحتمل تلك الصدمة، وبعد مرور ثلاثة أشهر، فارقت الحياة أيضًا وأصبحنا يتيمين وصار العمل هو كل ما يشغلنا. كان أبي قد وعدني بشقة في أحد مشاريعه الإسكانية، فقررت مفاتحة أخي بالأمر وخصوصًا أن راتبي لا يكفي لشراء شقة وسارة خطيبتي تُلِح عليّ في إتمام موضوع الزواج؛ لأن أهلها يضغطون عليها ويقولون إني قد تأخرت. انتظرت أخي في إحدى الليالي؛ لأفاتحه بالموضوع، ولكنه صار يصرخ بوجهي، ويقول لي ليس هناك شقق فارغة، وإذا كان، فالأفضل أن يبيعها ويحصل على سعر معقول يساعده في زيادة استثماراته، وقال لي إذا كانت خطيبتك على عجلة من أمرها لهذا الحد، فبإمكانها العيش هنا معنا، لكني رفضت وبشدة خصوصًا وأنها لن تشعر براحة مع هذا الوضع ولن أشعر أنا أيضًا براحة، وبالطبع، لن يوافق والديها.

لكنه أخبرني أن هذا كل ما يملكه الآن وليس هناك حل غيره، حاولت التفكير لإيجاد حل لتلك المشكلة وحاولت التهرب من سارة عدة أيام، ولكني لا أملك الكثير من المال، فقررت أن أصارح سارة بِمَ حدث لتكلم والديها فيعطوني مهلة حتى أجد حلًّا لهذا المأزق. وما أن فاتحتها بالأمر حتى قالت لي: من حقك نصف الميراث على الأقل أي لك الحق في نصف كل ما كان يملكه والدك، ولكن إذا لم يشأ أخوك بإعطائك حقك، فبإمكانك اللجوء للقضاء، وعندها، لن يلومك أحد. سوف أترك لك فرصة لتفكر في قرارك وما أن تصل إلى حل أخبرني به. تملكني شيء من الحزن وقتها أحان الوقت لأقف أمام أخي بالمحكمة أعلم أن أخي طيب، رغم عصبيته ولن

يسمح بذلك. عندما ذهبت للمنزل بالمساء، انتظرت أخي لحين عودته من العمل وفاتحته بالموضوع ومن ضرورة عمل إعلام وراثة، ولكنه صمت قليلًا وأخبرني أنه سيفكر بالأمر. بعدها بعدة أيام، دعاني إلى المكتب وقال إن المحامي سيكون حاضرًا لإتمام إجراءات إعلام الوراثة ويجب أن أكون موجودًا، فهو يحتاج إلى توقيعي على بعض الأوراق، ذهبت للمكتب صباح ذلك اليوم، ولكن لم أجد المحامي، وجدت أخي ينتظرني وحده. جلس يتكلم معي ببعض الأشياء التي ليس لها صلة بالموضوع مدة حوالي نصف ساعة ثم أخرج مسدسًا من خزنته وأعطاه لي قال إن كل رجال الأعمال يملكون مثله ويجب أن أملك واحدًا أيضًا لحماية نفسي. وقفت أنظر للمسدس في رهبة، فأنا لم أحمل سلاحًا من قبل ولم أعتد ذلك، بالإضافة إلى أنه لن يكون مسموحًا بحمله داخل جدران الجامعة، وفجأة، وجدت أخي يقف بمواجهتي ويصرخ وعلى وجهه علامات ذُعر: وهو يرجو ألا أفعل ذلك. نظرت له في ذهول وأخذت أتلفت حولي من يقصد بكلامه هذا؟

وفجأة، وجدت ثلاثة رجال بملابس بيضاء يحيطون بي ويكتفون يديّ ويحاولون إعطائي حقنة وأخي يصرخ ويقول: ماذا فعلت لك يا أخي لكي تحاول قتلي؟ أرجوكم انقذوني منه.

عبثية المشهد جعلتني في حالة من الصدمة، ولست قادرًا على النطق. فما بالك بالدفاع عن نفسي؟

غِبتُ عن الوعي ولم أفق غير وأنا ممدد على سرير بالمشفى وقد قاموا بتكبيل يديَّ وقدميَّ بأحبال، فلم أستطع الحركة، لم أجد غير الصراخ لأجد الممرضة تقترب مني وتحقنني بمادة مهدئة فأغيب

عن الوعي مجددًا. بعد عدة أيام من ذلك العذاب، أتى أخي لزيارتي وأحضر الشبكة التي قدمتها لسارة؟

وقال: إنها لم تعد ترغب في رؤيتي مجددًا، ولكني لم أندهش كثيرًا فكيف بأخي الذي فعل بي كل ذلك؟

فماذا ستفعل خطيبتي المسكينة؟ في الحقيقة، لم أغضب منها بقدر ما شعرت بشفقة تجاهها.

وأخبرني أخي أنني لو أردت الخلاص من كل ذلك العذاب، فبإمكاني أن أمضي على ورقة تقضي بالتنازل عن كل ممتلكاتي. وإلا سيتجه إلى المحكمة لرفع قضية حجر عليّ وعندها سيكون القانون في صفه، وهو طبعًا لرقة قلبه لا يريد أن يقف أمام أخيه بالمحكمة، ولكني لم أوافق، فمهما حدث لن أُعطيه الفرصة لكي يشعر بذلك الانتصار السهل عليّ، حتى لو أصبحت جثة في تابوت، فلن ينال مبتغاه. أحيانًا ينتابني شعور باليأس من أن أظل حبيسًا بتلك المشفى أو قل المقبرة للأبد. فأقول لنفسي ليتني قمت بقتله، عندما سنحت لي الفرصة، ربما كان السجن أهون لي من ذلك المشفى. ولكني أدعو الله كثيرًا لكي يُخَلِّصني من تلك المأساة، وكلما سنحت فرصة للوضوء والصلاة، توجهت إلى الله أدعوه وأشكو إليه ضعفي، فليس لي أب أو أم أو إخوة أو أقارب لكي ينصروني عليه ومرت عدة أشهر، وفي يوم ما، جاءت الممرضة تخبرني أن لي زيارة، فقلت لنفسي قاربت على سنة ولم يأتِ أحد لزيارتي، فمن تذكرني فجأة؟

ذهبت مع الممرضة لحديقة المشفى، فإذا به محامي أخي، فقلت له ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هل سأم من المعاملات القانونية

وجلسات المحكمة المؤجلة؟ نظر لي المحامي نظرة شفقة ثم قال: لقد تُوُفِي أخوك في حادث سير، كان في الفترة الأخيرة كثير السهر ويمر على كل البارات والملاهي الليلية للبلد، لم يترك شيئًا سيئًا إلا وفعله، وكان ذلك جزاءه....

عدالة السماء أقوى من الجميع على كل حال. عمومًا لقد تحدثت مع الطبيب المختل الذي يدير ذلك المشفى وهددته، فتوصلنا إلى تسوية مالية وسيقوم بإمضاء أوراق خروجكِ الآن؛ لتذهب معي لن أتركك هنا ولو لحظة واحدة بعد الآن. كنت أستمع لكلام المحامي وأنا في حالة من الصدمة لا أدري هل أحزن لموت أخي؟ أم أفرح لخلاصي من ذلك العذاب؟ تم إنهاء معاملات المشفى وذهبت لمنزلي أولًا؛ لأستحم وأرتاح قليلًا قبل بدء معركة أخرى. وقال لي المحامي: سنذهب للمشفى لإنهاء معاملات إخراج جثة أخي لدفنها، فكان يجب أن يستلمها أحد أقاربه. بمجرد وصولي للبيت، اتصلت بحارس المقابر وأخبرته بوفاة أخي وأن يقوم بتجهيز قبر له بجوار والدي. فأخبرني أنه سيكون جاهزًا بحلول موعد صلاة العصر، فشكرته وتقبلت منه العزاء. وقمت بالاستحمام ربما تكون تلك المرة الأولى منذ عام. وحاولت النوم قليلًا، ولكن النوم لم يقرب عينيَّ، فكانت الأفكار تدور ببالي كسرب أسماك يسبح بمحيط شاسع لا أدري هل حقًا ستكون لي حياة جديدة أم أن حياتي أيضًا انتهت بموت أخي؟ أخذت أنظر لصورة مُعَلَّقة على الحائط تجمعني بأبي وأمي وأخي، والدموع تتعلق بأهدابي وتأبى السقوط أو ربما لم يحن وقتها، فلا أدري أتدمع عيني لموت عائلتي أم لوحدتي وقربي من حافة الهاوية.

قمت إلى الهاتف ووجدت نفسي أتفق على فراشي لإقامة العزاء واتصلتُ ببعض المعارف لأخبرهم بالأمر واتصلت بجريدة ما لنشر نعي وفاته، بعد الظهر بقليل، توجهت مع المحامي إلى المشفى لاستلام الجثة، فتطلعت لوجه أخي للمرة الأخيرة وكان وجهه مليئًا بالكثير من الندوب، فوجدت نفسي أقول له (ربنا يسامحك) فيكفيه الآن عذاب الله له على ما فعله بي ووجدت دمعة واحدة تسيل على وجهي وكأنها من قطَر وليست ماءً، فوجدت صعوبة في أن تنسل من بين أهدابي.

اتفقنا مع عربة تابعة للمشفى لنقل الجثة وتوقفنا عند جامع قريب في انتظار صلاة العصر لكي نصلي عليه صلاة الجِنازة. بعد انتهاء الصلاة، حملنا الجثمان للسيارة، وانطلقنا في طريقنا للمقابر وقمنا بدفن أخي والدعاء له بالرحمة وعدت لمنزلي في المساء كان كل شيء مُجَهَّزًا لاستقبال المعزين بالقرب من منزلنا ومرت أيام العزاء الثلاثة سريعًا. وطلب المحامي مقابلتي لتسوية الأمور المالية، فهناك خياران: إما تصفية الأعمال وإما أن أتولى إدارة الشركة، ولكني لم أكن مستعدًا للتفكير بأي شيء، فطلبت منه مهلة للتفكير في الأمر. ولكن ما كان يهمني حقًا هو إكمال الدراسة بالجامعة، فهو حلم حياتي. بعدها بيومين، توجهت للجامعة وطلبت مقابلة رئيس القسم، فقد كان شخصًا طيبًا ويعاملني مثل ابنه بالضبط.

فسألني: أين كنت؟ لقد حاولنا الاتصال بك والبحث عن عنوان سكنك، لكننا لم نجد أثرًا لك، حتى أني سألت: الدكتورة سارة عنك، فقالت: لا تعلم عنك شيئًا.

وأخبرني أنه تم تحويلي للتحقيق، فأخبرته بكل ما حدث لي، فحزن كثيرًا. ثم أخبرني أنه سيقوم بالتشاور مع المجلس التأديبي لتخفيف حُكمهم، فوعدني أنه سيكون مجرد جزاء إداري فقط. نظرًا لسمعتي الطيبة وأبحاثي السابقة. شكرته كثيرًا ووعدته أن أكون عند حسن ظنه، ففرح لذلك كثيرًا وودعني ثم قابلت سارة على باب قاعة المحاضرات. فتهرَّبت مني ولكني أوقفتها. وقلت لها: سارة أريد أن أعتذر منكِ عما حدث.

فقالت: تعتذر عن ماذا؟ عن أني لست بمستوى سيادتكِ الاجتماعي؟

فقلت: ماذا تقولين؟ لقد كنت أنظر إليكِ دائمًا بأنكِ أنتِ كثيرة عليَّ، وكنت أريد إرضاءكِ بكل الوسائل.

سارة: ماذا تقول؟ لقد أخبرني أخوك أنك تريد فسخ خطبتنا؛ لأني لست بنفس مستواكم الاجتماعي، لقد حطمني قول أخيك لأشلاء حتى أنني لم أستطع إخبار أبي وأمي بالسبب الحقيقي لفسخ الخِطبة. وجلست أبكي بغرفتي أيامًا، وبعدها، انقطعت أخبارك.

فقمت بالاعتذار لها كثيرًا وطلبت مغفرتها وشرحت لها كل ما حدث لي، فدمعت عيناها ودمعت عيناي أيضًا لرؤيتها. وجلسنا نتكلم لحوالي ساعة، لم أنكر ما أحسست به، فقد شعرت بتلك السعادة الغامرة تعود لي من جَديد. طلبت منها مهلة لإصلاح أموري وأخبرتها أني سأتقدم لخِطبتها مجددًا ووعدتها هذه المرة بتعويضها عن كل ما فات وألا ترى غير السعادة معي، فوافقت على طلبي في فرح.

في اليوم التالي، أخبرت المحامي أني أريد تصفية كل أعمال والدي وأخي، فالمال ما هو إلا لعنة، وعهدت بالمشاريع غير المكتملة لبعض

أصدقاء والدي بعد حصولي على نسبة الأعمال المقامة وقمت بصرف رواتب الموظفين وإنهاء كل المُتعَلَّقات، وأخذ الموضوع حوالي ثلاثة شهور، في أثناء ذلك، حجزت في فندق صغير غرفة؛ لأُقيم فيها وعهدت بمنزلنا لمهندس ديكور وأخذت برأي سارة في ديكورات المنزل، فكنت أريد تغيير ملامحه حتى لا يذكرني بأي مما مضى، وانتهى العمل بالمنزل خلال شهرين وعدت عندها للجامعة وبدأت باللحاق بِمَ فاتني، أما بالنسبة لشركة والدي، ففي النهاية، تم تصفية كل شيء.

وقمت بوضع المال في حسابات بنكية، والحمد لله كانت تكفي لعيشي أنا وأولادي من بعدي حياة كريمة. بعد حوالي شهر، عدت لطلب يد سارة من والديها من جديد وتعهدت لهم بإكرامها وإسعادها، فوافقوا على مضض بعد إلحاح سارة عليهم.

فمرت أشهر الخطوبة سريعًا وأتممنا إجراءات الزواج وتعاهدت أنا وهي على أننا سنعلم أولادنا بالمستقبل أن يحبوا بعضهم ويكونوا عونًا لبعض وأن نعدل بينهم دائمًا حتى لا يكون بينهم أي ذرة من جشع أو طمع، فقد كفانا ما حدث بالسابق ولا أريد أن تتكرر مأساتي بين أبنائي بمشيئة الله...

أكرهك.. رغم عشقي لك

أقف في شرفة منزلي، أُلامس وريقات زهر الكولونيا وأتأملها، ففي بياضها الناصع سحر غريب دائمًا ما يجذبني إليها. أسمع دقات الباب أذهب نحوه بخطوات هادئة، ياترى من يأتيني في هذه الساعة المبكرة من الصباح. أفتح الباب لأجد ساعي البريد يُسلمني خطابًا. اسم المُرسِل: أحمد، المكان الآتي منه إنجلترا. أتجمد في مكاني لحظات ثم أودع الساعى وأغلق الباب. ياترى لماذا تَذَكَّرني بعد كل تلك السنوات؟ فقد كنت أوشكت على نسيانه، حقًا كم أحببتك كالمجنونة ولا أذكر حقًا إذا كنت بادلتني المشاعر ذاتها يومًا ما. أم كنت مجرد عاشقة حمقاء....

أجلس على كُرسي من الخيزران في شرفة منزلي وأفتح الرسالة (عزيزتي أمل، كم اشتقت إليكِ كثيرًا، لقد انتهت سنوات دراستي الأربعة أخيرًا، وسوف أعود الأسبوع المقبل، أتمنى أن تكوني أول من ألقاها بصالة المطار، سوف أفكر بكِ حتى يوم اللقاء. أتمنى أن تأتي على الموعد) المُخلِص أحمد.

رددت حقًا ما هذه الثقة التي يتحدث بها، هل نسى أنه لم يرد على أي من رسائلي منذ أن رحل، أم أنني توهمت ذلك. من كانت ترجوه ليرد عليها أو حتى ليسمعني صوته مرة واحدة في العام. من كانت؟

هل نسى دموعي وأنا أودعه بالمطار يوم رحيله. هل نسى وعده لي بألا ينساني؟ من كانت تلك؟ ومن كان هو؟ كم انتظرت ردًّا منه ولم يحدث والآن يتحدث وكأننا لم نفترق ولو لحظة منذ رحيله. كم كنت أُتابع أخباره عن طريق حسابه الإلكتروني كان يمرح مع أصدقائه، ولم يأبه لرسائلي واتصالاتي. ياترى هل هو سحر الغرب ما أسره هناك، فلم يجد ولو لحظة ليتذكرني بها؟ أم أنه لم يكن لي أي مشاعر قط؟

وكنت واهمة وكان هو يمضي وقت فراغه لا أكثر، فأغلبنا يحتاج إلى الحب، ولكن لا يبذل جَهدًا لكي يحافظ عليه، وهل يعتقد أن مع شروق شمس كل يوم سيجد حبًّا جديدًا في انتظاره. كل ما سأفعله الآن أني سوف أمزق رسالته لن أذهب إليه ولن آبه.....

مرت الأيام وأتى اليوم المُنتَظَر. وجدت نفسي أتجه لخِزانة ملابسي وأنتقي أفضل ثوب عندي وأتزين؛ لأذهب للقِائه بالمطار. ذهبت كالبلهاء لست مكترثة بكل ما مضى. وحيث أنتظره في صالة المطار، أتت الطائرة وبعد ساعة من الانتظار، أجده يخرج من الباب وتتعلق فتاة شقراء بذراعه، شعرت بالدوار ماذا يحدث لي؟ ومن تلك؟ ولماذا طلب مني المجيء؟

اقترب مني وقال: مرحبًا أمل، لقد مر وقت طويل، أُعَرِّفكِ صوفيا خطيبتي....

أمل: مَن؟ خطيبتك؟ هل أنت أحمق؟ لماذا طلبت مني المجيء إذًا؟ ارتفع صوتي وبدأ الناس ينظرون

أحمد: أمل اهدئي قليلًا، ماذا حدث لكِ؟

أمل: ماذا حدث لي؟ أتجرؤ على سؤالي؟ تغيب بعد كل تلك السنوات، وتأتي وتقدم لي خطيبتك. من كُنت أنا بالنسبة لك؟ مجرد زميلة دراسة تقضي وقتك معها بعد كل تلك الوعود والأحلام. هل كانت أحلامك تتضمنني؟ ولماذا لم توضح لي أم انتظرت مفاجأتي؟

فرد أحمد: أنا لم أعدكِ بشيء، لقد فهمتيني خطأًا...

أمل: حقًا. آسفة لذلك... سوف أُصلح خطأي الآن. رحلت دون أن أنظر خلفي، وأنا أردد عليك اللعنة، كم كنت بلهاء!

استقليت أول تاكسي قابلني وطلبت منه إيصالي للمنزل طوال الطريق، كنت أتذكر كل ذكرياتي معه ودموعي تهطل على وجنتيَّ، ربما لو استطاعت، لملأت أنهارًا، حتى سائق التاكسي لاحظني وبدأ في قول: هل أنتِ بخير يا آنسة؟ هل تشعري بتعب ما؟ فبإمكاني أن أوصلكِ للمشفى بالطريق.

ولكن إجابتي: لا شيء بي، أرجو فقط أن توصلني للمنزل سريعًا.

بعد حوالي نصف الساعة، وصلت لمنزلي وترجلت من التاكسي وودعت السائق كان رجلًا بمثل عمر والدي باسم الوجه، وتبدو نظرة حنونة من عينيه أو ربما تخيلت ذلك، ففي حزننا، دائمًا ما نرحب بأول يد تربت على أكتافنا لتواسينا، حينها تمنيت لو أن والدي كان ما زال حيًا لربما ذهبت وارتميت بحضنه؛ لأشكو إليه ضيق حالي، ربما كنت أجد لديه الإجابة وربما كان قوة لي، فلم أكن لأنتظر ذلك الأحمق كل تلك السنوات. هرعت إلى منزلي وتوجهت إلى غرفتي وبحثت في صندوق الذكريات القديمة؛ لأجد صورًا تجمعنا في المرحلة الثانوية، كنت أظهر بالصور مبتسمة ولي شعر أسود

طويل أرفعه من الخلف كذيل الحصان وأعين رمادية كأعين أبي، ورسائل كنت قد كتبتها له ولم أُرسلها وقمت بجمعها جميعًا وأشعلت النار بها، وقتها، شعرت أني أشتعل مع تلك الرسائل فكم سهرت من ليل أفكر به؟ وكم من أحلام جمعتني به؟ وظللت بها أرسم خطوط لمستقبل لم يكن ملكي يومًا ربما كنت أحلم لامرأة أخرى، فخطط أحمد لم تكن قط تتضمنني ويبدو أنه لم يشتق لي ولو لدقيقة واحدة، توجهت لجهاز الحاسب الآلي الخاص بي وقمت بإغلاق حساباتي على مواقع التواصل الاجتماعي وقمت بقص شريحة الهاتف. ونظرت لنفسي بالمرآة ويبدو على ملامحي الكبر ونظرة يأس تعلو وجهي، فملامحي أصبحت تشبه امرأة عجوز لحد كبير، فالانتظار يرسم خطوطًا بجباهنا كمن عاصر حروبًا وصراعات، ولكنها للأسف تحدث بداخلنا وليس خارجنا، فيكون الأثر أكثر سوءً وكأن تلك الزروع الخضراء المورقة تحولت لصحراء جرداء. كانت أمي قد سافرت لخالتي بالإسكندرية منذ يومين لتقضي معها إجازة الصيف، فقمت بحزم حقائبي أيضًا واتصلت بأمي؛ لأعلمها بقدومي، وذهبت لمحطة القطار وحجزت على أول رحلة للإسكندرية. كنت بحاجة لإجازة حتى من نفسي وأفكاري ربما هواء البحر يعيد لي صوابي ويجعلني أعرف مدى قيمتي وأهميتي، فشخص مثله لا يستحق البكاء عليه لحظة، طوال الطريق، كنت أنظر للحقول التي مررت بها وتعلو وجهي نظرة متجهمة وكأنني سارحة بلا شيء، كانت شمس اليوم توشك على المغيب ولونها البرتقالي يعانق السحب كمن عشق حبيبًا فاختلطت أجزاؤهم ببعضهم، فلا تستطيع التفرقة بين الأول والثاني، فكأنهما يملكان

نفس الملامح، كأنهما توأمان انفصلا منذ زمن ووجدا نفسهما بعد طول بحث، ولكن حالي كانت غير ذلك وكأنني ولدت كائنًا واحدًا. لا يُكمله شيء ولا تاه منه توأمه منذ زمن، فأصبحت كمن اكتفى بذاته. أفقت من أحلامي على صوت صافرة القطار تُعلِن وصول القطار لمحطته الأخيرة.

وصلت لمحطة الإسكندرية واستقليت تاكسي لبيت خالتي، وكان الجميع بانتظاري، كنت لم أرَ خالتي منذ سنوات المدرسة. فرحبَّت بي كثيرًا واستقبلتني على أحسن ما يكون، وكان لخالتي أربع فتيات يقاربنني في العمر وكانوا كلهم يبدأن بحرف الألف فهم إسراء وأسماء وأميرة وأزهار وكانوا جميعهن يُشبِهن خالتي وأمي بشعر أسود طويل وأعين مائلة للسواد، وكانت أسماء تقاربني في العمر وتخرجت مثلي في كلية الآثار وفرحت كثيرًا بقدومي ووعدتني بأن نذهب معًا في جولة سياحية لرؤية معالم الإسكندرية. وفرحت لذلك كثيرًا وكان زوج خالتي يعمل بإحدى دول الخليج؛ لذلك لم يكن هناك أي رجال بالمنزل وحقيقة كان من الأفضل، فقد بت أشعر بغيظ كبير من كل الرجال، رغم إني لم أعرف سوى شاب واحد، ولكن السيئة تعم كما يقولون بالأمثال. وفي يومي الأول هناك قضينا الليل كله نسترجع ذكرياتنا، وقضاءنا للأجازة في بيت جدتنا، وكان صوت ضحكاتنا يصل إلى حد الشاطئ، وكنْ يسكن قريبًا من شاطئ العجمي، فكان هواء الشاطئ يعصف بحواسنا من نوافذ المنزل وكأنني جالسة أمام الشاطئ أحدق بزرقة الماء. ولكني شعرت في تلك الليلة بالفرح الذي كنت أفتقده بحياتي وكأني عدت طفلة من جَديد ذلك الضحك من مواقف طفولية بسيطة ولعب

ولهو، ربما ما كنت أحتاجه أن أخاطب روح الطفلة بداخلي؛ لأعود لذلك الزمن الذي لم أكن أحمل به همًا ولم يؤرقني شيء به.

وعدتني أسماء بأن نذهب غدًا مع بعض أصدقائها لرؤية معالم الإسكندرية، فقد كانوا يُحضرون لبحث ما عن العصر الروماني وحكام هذا العصر بالإسكندرية وبإمكاننا الذهاب أيضًا لقلعة قايتباي، وأخذ الصور هناك، وكانت تكلمني بحماس شديد وكأنها سترى تلك المعالم لأول مرة مثلي، فرغم أني من سكان القاهرة وذهبت لعدة أماكن لقضاء إجازة الصيف، ولكن الإسكندرية هي الوحيدة التي لم آتِ إليها من قبل، كنت أشعر بالحماس أيضًا، ولكن حماسي مختلف، فبالتأكيد ستكون أماكن جميلة، ولكن حماسي لنسيان المدعو أحمد كان أكبر...

في الصباح بعد تناولنا للإفطار، ارتدينا ملابسنا وتوجهت مع أسماء لأقرب محطة من البيت كان أصدقاؤها سيجتمعون هناك، ذهبنا للمحطة ووجدت ثلاثة فتيان وفتاتين بانتظارها، واستقبلونا بابتسامة على وجوههم، ولكن كان هناك ذلك الشاب الثالث، وكان ينظر لأسماء نظرة تحمل الكثير من المعاني، ربما كان حبيبها، عرفتني أسماء بهم جميعًا، وكانت تعلو وجهها ابتسامة مشرقة، عندما عرفتِ ذلك الشاب الذي يُدعى مصطفى، فتأكد ظني وكانوا كلهم رفقاءً بنفس الكلية، وبدأنا جولتنا السياحية من المسرح الروماني وبدأوا في التناوب على الشرح لي، ربما كانوا يسترجعون معلوماتهم، ولكني أُعجبت بالمكان كثيرًا، فرغم أن اكتشافه جاء مصادفة عن طريق بعثة بولندية عام ١٩٦٠، فإنني أعتقد أن التراب لا يستطيع أن يحتفظ بالحُسن مدة طويلة، فدائمًا ما

يلفظه خارجه، فمصر على اختلاف الحضارات التي مرت بها مع كل احتلال أو حكم أو وصاية إلا أنها قادرة على تقبل الجميع واحتوائهم.

بدأت أشعر بإحساس جميل عن أهمية التاريخ وإيصاله واستعلمت من أسماء عن كيفية العمل مرشدة سياحية وما المطلوب مني للبدء بتلك المهنة فقد كُنت تخرجت في كلية الآثار جامعة القاهرة قسم آثار إسلامية، ودرست اللغتين الإنجليزية والفَرَنسية منذ المرحلة الابتدائية يبقى لي أن ألتحق بدورة تدريبية للإرشاد السياحي، والتعرف عن قُرب على مُختَلَف الآثار الإسلامية داخل مصر. يبدو أن هذه المهمة الجديدة ستأخذ كل وقتي، فلن يبقى لديّ وقت للتفكير بأحد آخر. وعدتني أسماء أن نزور مسجد المرسي أبو العباس ومسجد القائد إبراهيم وعدة مساجد أُخرى. عدنا للمنزل في المساء، وطوال الطريق، كانت تحكي لي أسماء عن مصطفى وحبه لها وأنه سيتقدم لخطبتها قريبًا، فهنأتها وتمنيت لها السعادة وألا تلقى مصيرًا يشبهني، فليس من السهل أن تجرح مشاعر الفتاة ممن أحبته. ظللت مع أمي بالإسكندرية عدة أيام ثم عدت مع أمي للقاهرة وبدأت بالتسجيل بدورة تدريبية للإرشاد السياحي واتصلت ببعض أصدقائي ممن سبق لهم العمل بهذه المهنة وعملت جدولًا لزيارة بعض الأماكن بجانب الدراسة كمتحف الفن الإسلامي والقلعة ومسجد محمد علي وبعض المساجد المعروفة. بجانب ذلك، بدأت في البحث عن شركات ترغب بتعيين مرشدين سياحيين لديها، فلم أكن أريد لحظة فراغ واحدة تعيدني

إلى الوراء. مرت الأيام سريعًا حتى أني لم أشعر بأي تعب فشغفي الجديد أصبح يملأ كل حياتي.

وفي أحد الأيام، كنت مع عدد من السياح بشارع المعز، وقابلت أحمد مصادفة، وتفاجأ من رؤيتي، وأقدم عليّ لمخاطبتي.

مرحبًا أمل لم أركِ منذ مدة طويلة، لقد حاولت الإتصال بكِ أكثر من مرة وكان رقمكِ مُغلَقًا، ولم أستطع الوصول إليكِ عن طريق مواقع التواصل، ماذا حدث معكِ؟

فأجبته: مرحبًا أستاذ أحمد، لم يحدث معي الكثير فقط وجدت نفسي، كيف حالك؟ وكيف حال خطيبتك؟ لا أراها معك.

فأجابني: لم يعجبها العيش بالقاهرة أو تقاليدنا؛ لذا انفصلنا وعادت إلى بلدها، يبدو أنكِ مشغولة الآن، ما رأيكِ أن نتقابل بعد انتهاء عملكِ؟

فأجبته: أعتذر أستاذ أحمد فأنا لست متفرغة لا اليوم ولا الغد ولا بعد غد.

فقال: ماذا عن الأسبوع القادم؟

في البداية عندما نظرت لوجهه، عادت لي الكثير من الذكريات عما مضى، وعن مشاعري التي كادت تحرقني، وكنت أوجهها لمن لا يستحق. وكأن كل ما حاولت نسيانه عاد إلى عقلي مجددًا. فالحديث عن النسيان أمر سهل، ولكن يبقى تنفيذه هو الاختبار الحقيقي لمدى صحة ما نتمنى تحقيقه.

وبدأت أتساءل: هل أحببته حقًا؟ أم أن الوحدة والفراغ هما مَن جعلاني لا أرى غيره؟ ولكني بالتأكيد لا أستطيع المغفرة له، فليست كل الذنوب متشابهة، ولا كلها تحتمل المسامحة. تركته ورحلت ولم أجبه وعلى وجهي ابتسامة، لقد نلت انتقامي دون تخطيط مني، يبدو أن أفضل انتقام ممن تركوك وحدك أن تحب نفسك.....

طفلة ما

أمر بأطفال يلعبون بحديقة ما، فأجلس لأريح قدماي قليلًا، فقد أتعبني المسير، وما بين صخبهم وضحكاتهم العفوية والمرتفعة وبكائهم أحيانًا أفكر، ترى هل تمنيت أن أحظى بطفلة صغيرة يومًا ما؟ ترى من تشبه أنا أم أباها أم اتخذت ملامح منا نحن الاثنين؟ هل سأُصَفِّف شعرها كل يوم وأضع لها ربطات شعر بألوان متشابهة وألبسها ثوبًا مطرزًا بورود أو فراشات كلعبة الباربي أو أميرات ديزني؟ أم أعطي لها مساحتها الخاصة من التمرد، فتُصَفِّف شعرها أو تتركه مسترسلًا، ترتدي ثوبًا مُطرَزًا كالأميرات أم مجرد بنطال وقميص صغير مرتفع الأكمام؟ ترى هل سأستطيع الحديث معها كصديقة لي أم سأنتظر فترة أطول حتى تعي مفرداتي جيدًا؟ ترى هل ستُصبِح ككل الصغار يمسكون بأثواب أمهاتهم ويتبعونهم كالظلال بكل مكان؟ أم ستتخذ كرسيًا من كراسي المنزل وتجلس ممسكة بقصة مصورة أو تعيد تركيب ألعاب الليجو وتفككها غير مكترثة لكل صخب يدور من حولها؟ ترى ستتعلق بوالدها وتجلس خلف باب المنزل حتى تغفو في انتظار مجيئه؛ ليحملها ويلاعبها كما اعتادت معه وتهرول، كلما سمعت جرس الباب معتقدة بوصوله؟ ترى ستحتضنني وتبتسم لي مودعة في كل صباح أوصلها فيه إلى باب المدرسة؟ ترى عندما تعود للبيت، ستجري عليَّ؛ لتحتضني

وتضع قبلة على جبيني وتقول لقد اشتقت لكِ يا أمي وعددت ساعات اليوم لكي أعود للمنزل وأحتضنك...

ترى سترافقني في كل مكان أذهب إليه لكي تؤانسني، فإذا ما ذهبنا للسوق أو محل تجاري أجدها تهرول إليَّ وتُمسك بيدي وتقول سأذهب معكِ يا أمي؟. ترى إذا مرضت، سأجدها تجلس بجانبي لتربت على كتفي وتقول: سلامتكِ أمي وتطبع قبلة سريعة على وجنتيَّ وتقول أرجو أن تتعافي سريعًا يا أمي؛ لنقضي وقتًا أطول معًا؟.....

وتمر أعوام طويلة من إيصالي للمدرسة وتقديم طعام ومراجعة طبيب ونزهة بحديقة أو مدينة ألعاب وزيارة لمنزل الجد والجدة وتجمع في آخر الأسبوع بمنزل العائلة إلى أن يأتي وقت ذهابها للجامعة.

فأشعر أنها أصبحت فتاة ناضجة الآن، فأتمنى أن تصحبني هي من يدي وأن أعود لأرى الدنيا بعيون شابة مثلما كُنت في سنها، وما بين جو جديد وأصدقاء جُدُّد ومحاضرات ورحلة مع أصدقاء ما ومشروع دراسي ما، أجلس بقربها؛ لأراقب كل تحركاتها ليس لأني أخاف عليها أو إياها، بل لأنها تكبر كل يوم عن اليوم الذي يسبقه، فأخشى أن أنسى ملامحها أو أن يضيع تفصيل من تفاصيل وجهها من ذاكرتي. ولضيق الوقت، ربما أشعر ببعض الغيرة، فهي لم تعد تمضي وقتًا كثيرًا معي مثلما كان يحدث بسنواتها الأولى.. ولكنها سُنةُ الحياة، فالصغير لن يظل صغيرًا لنهاية العمر، ولكن ابنتي ستظل كذلك، فرغم كبرها بالسن، فإني أشعر برغبة لحمايتها طوال الوقت، وربما جعلني ذلك متسلطة قليلًا. فأرغب بأن أقول

لها هنا عذرًا يا فتاتي، فقد أحببتكِ أكثر من نفسي منذ اللحظة الأولى التي رأيتكِ بها بالمشفى بذلك الوجه الملائكي الصغير والأيدي الصغيرة التي تُشبِه سنابل القمح، وكم ارتفعت دقات قلبي مدوية عند رؤيتكِ تبتسمين لي للمرة الأولى وكأن طبول أفراح تُدَق بقلبي. وكم شعرت بالسعادة عندما سمعت كلمة ماما منكِ للمرة الأولى وكأني قد ملكت الدنيا كلها بِمَ عليها.

فلا تطلبي مني اليوم أن يقل حبي أو قلقي عليكِ ولو قليلًا، فأنتِ كل ما أملك يا زهرة عمري. وتمر أيام الجامعة سريعًا؛ لنشهد حفل تخرجكِ أنا ووالدكِ ويملأ وجهينا نظرة من الفخر والفرح، فقد كَبُرت ابنتنا الصغيرة اليوم وستبدأ حياتها الخاصة، فتزداد فرحتنا أكثر وأكثر؛ لتبدأ حياة جديدة بنظرة جديدة، فذلك يوم فتاتي الأول بالعمل، فأنتقي لكِ زيًا جميلًا وأرسل معكِ الكثير من الدعوات لكي تحفظكِ. لتبدأي مغامرة جديدة أكون فيها بجانبكِ أيضًا، ولكن من بعيد تلك المرة، فإذا ما احتجتِ النصيحة، سأكون دائمًا لجوارِكِ.. ولكن حان الوقت لكي تتخذي قرارات كثيرة بنفسك، وتمر الأيام وأنا أنظر إليكِ كل يوم نظرة إعجاب، ففتاتي الصغيرة تقدر على عيش الحياة ومحاربة كل ما يؤذيها... فلست قلقة عليكِ الآن..

وسيمر يوم لتخبرني أن هناك زميلًا لها بالعمل مُعجب بها وأنها تُبادِله نفس الشعور، وأنه يريد أن يأتي لبيتنا؛ ليتقدم لخطبتها، فأبتسم لها وأحتضنها لقد كبرت ابنتي وأصبحت عروسًا جميلة، فأخبرها لا تقلقي يا عزيزتي، فسأناقش والدكِ بالموضوع؛ لأخبر والدها فيقول كم مرت الأيام سريعًا ما زلت أتذكرها تلك الطفلة

التي تجلس خلف الباب في انتظار عودتي. كم أفتقد تلك الأيام ولكني لا أنكر فرحتي بأنها كبرت الآن، حسنًا على بركة الله فلتخبريها أن تحدد معه موعدًا ليأتي لزيارتنا..

وتمر الأيام سريعًا لتتم الخِطبة والتجهيزات للزفاف؛ ليأتي وقت انتقاء فستان الزفاف وكم هي من مشاعر مختلطة فما بين فرحي لنضج ابنتي واستقلاليتها وفرحي لسعادتها أيضًا، وما بين حزني لأنها ستُغَادِر المنزل وسيرحل ذلك العصفور المُغَرِّد الذي يؤانسني أنا ووالدها كل صباح...

لأجدها أمامي بفستان زفافها كالحوريات، فليس هناك مَن هي أجمل من ابنتي بعينيَّ، لتدمع عيناي وأحتضنها بقوة وأقول لها: حبيبتي، أشعر أني أشتاق إليكِ منذ الآن، لتشاركني الدموع والضحكات وتأتي الليلة المحددة ليوصلها أبوها من يدها لعريسها ويوصيه أن يصونها ويحافظ عليها، فقد انتقلت زهرتنا من منزلنا لمنزله، فيجيبه بالإيجاب مبتسمًا ويقول: فهي شمسي يا عمي مثلما هي زهرتك، ولن يشرق يومي من دونها... فيُقَبِّلها أبوها على رأسها ويخبرها فلتهنئي بالسعادة يا حلوتي.....

لنعود أنا ووالدها للبيت في نهاية اليوم فتحتضننا وتخبرنا أننا سنظل أول من أحبت من وقت أن وقعت عيناها علينا، فنزيد من أحضاننا وقبلاتنا لها ونودعها ببسمة وبدموع فرح، وندعو لها بالسعادة للأبد.. ولا تنتهي الليلة هنا فما بين ألبوم صورها وتذكري أنا ووالدها لكل تلك الأيام الماضية ما بين دمع وفرح وسهرنا حتى

الصباح ننتظر مكالمة منها بفارغ الصبر فقد وصلت بيتها سالمة وستبدأ حياة جديدة منذ اليوم...

وتمر الأيام سريعًا وتُرزَق طفلتنا بطفلة آخرى جميلة هي ابنتها وحفيدتنا الآن، فأسألها مبتسمة: ما شعورك الآن يا حلوتي؟ فترد في ابتسام لقد أدركت الآن يا أمي كم أحببتني وتعانقني والدمع بعينيها.
فأجيبها نعم يا صغيرتي، وما زلت أحبكِ مثلما رأيتكِ أول يوم وسأظل أحبكِ للأبد.....

زهرة البنفسج

في باحة دار كبيرة فتاة أندلسية ذات شعر أصفر طويل وعين زرقاء بصفاء ماء المحيط ترمي بشال من الحرير على كتفيها وترتدي رداءً مُطرزًا من اللون الأبيض يحمل نقوشًا لزهور برية على أطرافه.
تنتظر في دأب بائع العطور، فقد وعد بأن يأتي اليوم، ويُحضِر أشهر العطور الباريسية، تتساءل في لهفة:
هل سيأتي البائع اليوم يا أمي؟ لقد أخبرت جميع صديقاتي برائحة العطر الساحر الذي سأقتنيه...
وكانت والدتها في العِقد الرابع من العمر وعلى ذات القدر من الجمال. فتنظر الأم لابنتها وتقول: لا تقلقي يا ابنتي، فهذا ميعاده المُتَّفَق عليه، سوف يأتي حتمًا، ربما تأخر عند باب أحد الجيران.
ولكني يا أمي، أنا أنتظر هذا العطر بفارغ الصبر؛ لأبدو الأجمل أمام صديقاتي..
فقالت الأم: وهل أنتِ غير جميلة أو قليلة الجمال.؟ لا تقلي هذا يا ابنتي، فأنتِ تحملين بداخلكِ جمال مدينة الأندلس كلها، وليس بداخلك فقط، فوجهكِ يَحكي جمال مدينة رائعة القصور والورود فكيف وأنتِ تفوحين بعطر مدينة بأكملها؟
فنظرت الفتاة لوالدتها وقالت: حقًا يا أمي.. فضحك وجه الأم وقالت: حقًا يا ابنتي، فلست أملك أغلى منكِ.

فسمعت صوت دقات على الباب.. فقفزت الفتاة من على كرسيها، لا بد أنه بائع العطور وكان يعلو وجهها نظرة توحي بسعادة غامرة... فنظرت إليها الأم في حنان وقالت: ألم أقل لكِ إنه سيأتي يا ابنتي؟ هيا لنستقبل البائع وتوجهت الفتاة مسرعة تجاه الباب لتجد البائع وهو يحمل صندوقًا كبيرًا...

فيتقدم البائع على مهل: عذرًا سيدتي على تأخري، فقد تأخرت قافلة العطور في الطريق، وكان عليَّ الانتظار ساعتين آخرين....

فقالت الفتاة: لا بأس، هل أحضرت يا سيدي العطور الباريسية التي قمت بطلبها.

فنظر البائع لها في وقار: طبعًا يا آنستي الصغيرة، إنه أحدث عطر بباريس اليوم ويُدعى زهرة البنفسج، تفضلي فلتجربيه أولًا..

فتقدمت الفتاة نحو البائع وأخذت زجاجة العطر وقالت: حقًا إنها لرائحة جذابة..

فقال البائع: طبعًا سيدتي، ويمكنني أن أحكي لكِ عن سر جاذبيتها، إنها لقصة رائعة حقًا.

فأجابت الفتاة: حسنًا، إذا كانت قصة جيدة، فأريد سماعها طبعًا.

جلست الفتاة بجوار أمها وتجمع الجيران لرؤية عروض العطور، وبدأ البائع في سرد قصته..

منذ زمن ليس ببعيد كان هناك صبي يُدعى ألفرد يعيش في حديقة فاكهة مع والديه، وذات يوم، ذهب لبيع الفاكهة بالسوق مع والده. وإذا بفتاة رائعة الجمال ترتدي فستانًا طويلًا مكشوف الكتفين مائل للزرقة يشبه صفاء عينيها ولها شعر أسود طويل يغطي

كتفيها، وكانت تقف أمام المخبز تقوم بعرض المخبوزات، فإذا بقلب ألفرد يقفز من مكانه، ويتساءل:

هل هناك حقًا فتاة بمثل هذا الجمال...؟

فتوجه ناحيتها في تردد: هل سيمكنني التعرف عليها إنها لرائعة الجمال حقًا، وأخذ يفكر في حجة للكلام...

اقترب ألفرد من الفتاة وقال: عذرًا آنستي، ولكن بكم الخبز اليوم؟

فأجابته الفتاة: فرنك للواحد.

فقال: أريد أن أشتري كمية كبيرة فهناك احتفال في مزرعتنا سيُقام غدًا، فهل يمكنني أن أوضح لكِ العنوان لكي توصيلها غدًا.

فردت الفتاة مبتسمة: طبعًا سيدي، سيقوم أخي بإيصالها إلى منزلك بالغد.

فتساءل في نفسه: ماذا أفعل الآن؟ فقد كنت أريد رؤيتها وحدها.

فقال: ولكن آنستي بالقرب من منزلنا، يوجد مجموعة زهور برية نادرة بإمكانك أن تأتي أيضًا لمشاهدتها، فكثيرًا ممن يمرون بطريق منزلنا يتوقفون لرؤيتها ورسم الصور لها. حتى لقد طلب رسام مشهور من المدينة ذات مرة أن نستضيفه بمزرعتنا عدة أيام لكي يقوم برسم تلك الزهور بلوحاته القادمة.

فردت الفتاة: وهل هي حقًا بهذا الجمال؟ فرد ألفرد بابتسامة توحي بالإيجاب... فأجابته: حسنًا سيدي، سوف آتي مع أخي بالغد لرؤيتها، فربما تكون فرصة لا تُعَوَّض...

فسأل ألفرد: ولكن هل يمكن أن أتعرف باسمكِ آنستي، فسأكون مسؤولًا عن استقبالكِ غدًا.

فردت الفتاة بابتسامة: أُدعى إليزابيث سيدي

فرد ألفرد: إنه لحقًا اسم جميل... فتبسمت الفتاة في خجل
تحدث ألفرد مع إليزابيث عن طلبية الخبز وأخبرها بالعنوان والموعد ودفع لها جزءً من ثمن الخبز ثم ودعها وذهب في طريقه..
عاد ألفرد ووالده إلى حديقة الفاكهة في أطراف المدينة، وأثناء الطريق، أخبر ألفرد والده أنه يريد أن يعد حفلًا لاستقبال أخته وزوجها بالغد وإنه اتفق مع مخبز على طلبية طعام سيتم إيصالها غدًا، فرح الأب بهذه الفكرة وأخبره أنه يمكنه الاعتماد عليه للاهتمام بباقي تفاصيل الحفل.. فأجابه والده بالموافقة.
ولكن ألفرد كان يفكر طوال الطريق بإعجابه الشديد بإليزابيث وكيف يُفصِح عن مشاعره تجاهها وعلى الفور اتجه ألفرد إلى حديقة الأزهار خلف منزله حيث كان يملك مستودعًا صغيرًا لصناعة العطور. بعد أن درس كيفية صناعاتها في المدينة وظل طوال الليل يجرب عينات العطور والتركيبات حتى يُحضر هدية لإليزابيث تعبيرًا عن إعجابه بها..
وأثناء ما كان يُجَرِّب عينات العطور، لاح أمامه ظِل لزهور البنفسج، فنظر للزهرة في إعجاب وأخذ يتمتم كم تشبه إليزابيث إلى حد كبير في رونقها وتفردها، فلونها جميل ويُشعِر بالراحة، كما لها رائحة فريدة.
فأحضر زجاجة فارغة وقام بتحضير عينة العطر ووضعها بها، وقام بتجربتها إنها حقًا لرائحة فريدة ومميزة، أتمنى أن تُعجَب بها إليزابيث.

قام ألفرد بتغليف الزجاجة بقماش أحمر من القطيفة وتوجه إلى غرفته، وفي الصباح الباكر، توجه إلى المطبخ لإعلام الطباخين بإعداد الطعام، وقام بتزيين حديقة المنزل...

وفي الوقت المحدد، أتت إليزابيث برفقة أخيها ومعهما عربة تحمل طلبية الخبز، فنزلت لتُقابِل ألفرد فإذا بها أجمل من ليلة البارحة، وكانت تضع زهرة بنفسج صغيرة بجديلتها..

فقال ألفرد في نفسه: هل هذا القدر حقًا؟ وهل تحب زهرة البنفسج مثلما أفعل؟

فتقرَّب ألفرد: وقال مرحبًا آنستي، لقد جئتِ بالموعد المحدد.

فردت: مرحبًا سيد ألفرد، طبعًا من صفاتنا الالتزام بمواعيد الطلبيات.

فنادى ألفرد إلى أحد العمال لكي يساعد شقيق إليزابيث في إدخال الخبز إلى المطبخ.

فقال ألفرد: هل لديكِ الوقت آنستي لرؤية حديقة الزهور؟

ترددت ثم قالت: نعم سيكون ذلك رائعًا، فطلبت من أخيها انتظارها لحين تعود بجانب العربة.

مشت إليزابيث إلى جانب ألفرد على استحياء وقال ألفرد: لديّ مستودع صغير لصنع العطور خلف منزلي، وكنت أنوي إطلاق عطر جديد، هل يمكن أن تعطيني رأيك به؟ فرأيك يهمني كثيرًا...

نظرت إليزابيث في فرح: حقًا فأنا أحب العطور كثيرًا..

توجهوا إلى المستودع معًا وقام ألفرد بإعطاء زجاجة العطر لإليزابيث وقامت بفتح الزجاجة فإذا برائحة البنفسج القوية تفوح من داخلها وتأسر حواسها.

فنظرت إليزابيث لألفرد في إعجاب وقالت: هل تعلم أن البنفسج زهرتي المفضلة؟ إنها حقًا رائحة آسرة كم عشقتها...

فرد ألفرد: حقًا، في الحقيقة أريد إخبارك بسر، عندما رأيتكِ البارحة، أُعجبت بكِ كثيرًا وفكرت في صنع عطر لكِ وعندما رأيت زهرة البنفسج البارحة، فكرت أنها تشبهكِ كثيرًا؛ لذلك قمت بإعداد العطر وسأطلق عليه زهرة البنفسج، هل أعجبكِ؟

نظرت إليزابيث في إعجاب لألفرد: أعجبني كثيرًا وسأكون أول من أضع هذا العطر، وهكذا أطلق ألفرد اسم زهرة البنفسج على العطر تخليدًا لحبه لإليزابيث..

صَفَّق الجمع لبائع العطور على تلك القصة وتمنَّت جميع الفتيات لو يحظين بحبيب مثل ألفرد قادر على أن يأثر حواسهن في مقابل عطر يماثل زهورهن المفضلة.

عاطفة أم

استيقظت اليوم وأنا أشعر بسعادة عارمة، فاليوم خِطبتي على شخص لطالما أحببته، وانتظرت اليوم بفارغ الصبر لكي نجتمع معًا، ورغم أننا واجهنا الكثير من الصعوبات من رفض من أهلي لخطبتنا وظروفنا المادية الصعبة، فإننا تخطيناها أخيرًا لكي نكون معًا. أنظر اليوم للسماء بشكر، فلم يخذلني قدري في الارتباط بمن أُحب. أُدعى نهى وفي عامي الأول بكلية تجارة وأسكن بإحدى قرى ريف مصر وخطيبي أو مَن سيصبح ذلك يُدعى حسين شاب طويل ولديه بشرة بيضاء مُشربة بحمرة ولديه أعين سوداء ولا يملك الكثير من الشعر بمقدمة رأسه لا أعلم ولكنني اعتقدت دائمًا أن الصلع علامة على الذكاء كممثلي التلفاز والسينما كان ابن جارتنا وكان يكبُرني بعام واحد وحصل على شهادة متوسطة ووجد عملًا بإحدى دول الخليج لكي يُكَوِّن نفسه سريعًا ويُتم الزواج. وقد كُنت أريد إنهاء دراستي الجامعية أولًا، فقد كان حلم أمي لي؛ لذا سيكون أمامه وقت ليؤسس لنا منزلًا ملائمًا. ولكن أخي الكبير يرفض ذلك الزواج؛ لأنه يريد أن يخطِبني لشقيق زوجته، فهو يعمل مُهندسًا للديكور ولديه مستقبل مبهر، كما يقول ولكني كنت أراه رجلًا عاديًا ولا يلفت انتباهي في شيء، فقد قررت أن أثق بالحب فهي حياة واحدة فقط، فلا أريد أن أقضيها مع رجل لا أُريده. أما أختي الكبيرة، فقد كانت متزوجة منذ عامين ودائمًا تقول لي أنتِ طالبة

جامعية وطويلة وتملكين بشرة بيضاء وأعين بنية باختصار جميلة وأفضل شخص يريد الارتباط بكِ، فلماذا تحكمين على حياتكِ بالفشل؟ وتتجهين لمستقبل غير معلوم لمجرد ادعاء الحب. كنت أنظر إليها في شفقة نوعًا ما وأربت على كتفيها في صبر وأعذرها فزواجها كما يُدعى عندنا جواز صالونات، فهي لم تجرب الحب من قبل. كان حسين قد أحضر لي فستانًا من سفره بلون السماء وتُزَيِّنه ورود صغيرة على الكتفين. حقيقة لم يطلب حسين من أبي الكثير من الأشياء مثلما كان سيفعل أي شخص آخر. وقد كنت أُشفِق على أبي، فقد كنا تسعة أبناء (٤ فتيات و٥ صبيان) وقد كان أبي عاملًا بسيطًا؛ لذلك لم أرد أن أشق عليه كثيرًا. وأمي قد تُوُفِيَت منذ عشرة أعوام، كم كنت أتمنى لو كانت بجانبي اليوم؛ لتشاركني فرحتي؟ فقد كانت والدتي جميلة جدًا، ولكني لم أستطع الأُنس بحنانها لفترة طويلة، فقد حصلت على ستة أولاد (ثلاثة صبيان وثلاث فتيات) وكانت مريضة بعض الشيء في آخر أيامها، وكنت ما زلت صغيرة كنت أجلس بجوارها طويلًا ولا أفعل شيئًا غير النظر إليها. فكانت تمزح معي وتقول: ربما يذوب وجهي من كثرة نظرك إليه. فأحتضنها بقوة وتدمع عيناي، وربما كان موت أمي سبب معرفتي بحسين، فقد أُنهِرت بموتها كثيرًا، وكنت أريد ألا أبقى بالمنزل وخصوصًا لم يمر عام وكان أبي قد تزوج بأخرى. فكانت والدة حسين تُشفِق عليَّ كثيرًا وتعاملني برفق وتقول لي: أنتِ مثل ابنتي، فقضيت أيامًا كثيرة بمنزلها، وعندما تفتحت عيناي على الحب لأول مرة، تعلَّقَت بابنها وتعلق بي هو أيضًا. فأحببته حوالي ثلاثة أعوام قبل خِطبتنا، ففي صباحات الشتاء، كان يرافقني

للمدرسة، فقد كان الجو يُشبه ظُلمة الليل، وكان كثيرًا ما يحضر لي البنبون والشيكولاة؛ لذلك تقربنا من بعضنا كثيرًا.

ولكن زوجة والدي كانت تعاملني برفق، أراها امرأة طيبة، ولا تحاول أن تُغضبني، بل كثيرًا ما تدعو لي بالخير وتتحدث معي، وتُعِد لي ولإخوَتي أطباقًا شهية، وكنت أيضًا أُسرع لمساعدتها بأعمال المنزل، فقد كان الحديث معها ممتعًا نوعًا ما. أسمع الآن صوت حسناء صديقتي من الجامعة وجارتي تنادي عليَّ سوف أذهب لتحيتها.

خرجت من غرفتي، وتوجهت للصالة، فوجدت حسناء بانتظاري تبتسم لي عانقتني وتمنت لي خِطبة سعيدة، وجلست معها بغرفة الضيوف نتحدث ونضحك ثم طلبت رؤية فستان الخِطبة، فذهبت معها لغرفتي لكي أُريها الفستان، فوجدت ابن أخي الأكبر يلعب بالغرفة، ووجدت الفستان ممددًا على الطاولة وفوقه المكواة وتنبعث منه رائحة دخان.

أسرعت لأُبعد المكواة عن الفستان، ولكن بلا أمل، فقد فسد الفستان. جلست أبكي وأندب حظي العاثر لم أكن أتوقع أن يصل كره أخي لي إلى هذا الحد، لا بد أنه هو الفاعل، فهو لم يرضَ عن ذلك الزواج.

حتى تلك الفرحة البسيطة يستكثرها عليّ، ما أقبح الحياة!

رق قلب حسناء لي ووجدتها تربت على كتفي وتقول لي: لا تحزني، لديّ صديقة تملك أتيليه لتأجير فساتين الزفاف، سوف نذهب إليها لتختاري فستانًا من أجل خِطبتكِ.

فسألتها: ولكن ماذا سنفعل بشأن نقود تأجير الفستان؟

فقالت لي: لا تقلقي، فأنا وهي أصدقاء منذ زمن وجميع أفراد عائلتنا يستأجرون من عندها؛ لذلك لن يكون هناك مشكلة سنستأذنها في فستان مدة ثلاث ساعات ونعيده إليها في نهاية الخِطبة.

ارتديت ملابس الخروج وذهبت مع حسناء لأتيليه صديقتها، فرحبت بنا كثيرًا وأخبرتني بألا أحمل همًّا.

فاخترت الفستان ولكن خفت أن آخذه للبيت، فيحدث له مثلما حدث لسابقه.

فقالت لنا: إن بإمكان ابنها الصغير أن يُحضِر لنا الفستان في تمام الساعة الخامسة قبل الخِطبة مباشرة

فوافقنا على ذلك وشكرناها وانصرفنا.

ذهبنا إلى البيت أنا وحسناء وبدأت بمساعدة زوجة أبي في الإعداد لحفلة الخِطبة بالمساء. وبدأنا في إعداد الطعام من لحم ومرق وأرز وفطائر محلاة وشراب الفاكهة، وقبيل العصر، تركت باقي مهام المطبخ لإخوتي وزوجات أشقائي الرجال وذهبت لغرفتي لكي أستحم وأتزين.

فحضرت حسناء وأحضرت معها رفيقتها التي تعمل بصالون التجميل؛ لتُعِد لي تسريحة لشعري على الموضة وتضع لي بعض مساحيق التجميل.

شكرت حسناء كثيرًا، فقد تعاملت معي اليوم أفضل من إخوتي، فقد كانت صديقة مخلصة حقًا وددت لو أعانقها طويلًا، ولكن الوقت اقترب من الانتهاء.

جاءت الساعة الخامسة فانتظرني ابن صاحبة أتيليه الفساتين بفارغ الصبر وأنا أمشي من الباب إلى حجرتي جيئة وذهابًا وأُحَدِّق بساعة الحائط، وبدأ اليأس يتسرب لنفسي، ولكن قطعه دقات على الباب متقطعة، لقد تأخر حوالي ربع ساعة، ولكن الحمد لله لقد جاء أخيرًا.

لم يكن الفستان بجمال ذلك الذي احترق، ولكنه يفي بالغرض، فلن أقضي يوم خِطبتي حزنًا على الأقل.

ارتديت الفستان وصرت جاهزة حتى أبدأ رحلتي مع السعادة أو ذلك ما أردت أن أسميها به.

فجاء موعد الحفل وتوجهت مع أبي إلى الكوشة حيث يجلس حسين بانتظاري، فقام وأخذ بيدي وأجلسني بجواره، وفي عينيه نظرة انبهار، وهمس لي وقال: لم أعلم أن خطيبتي جميلة إلى هذا الحد، ربما كان عليَّ أن أتقدم لخِطبتك منذ سنوات، يبدو أن دعاء أمي لي قد أحدث نفعًا وابتسم.

فابتسمت أنا أيضًا، ولكنه سألني عن الفستان الذي أحضره قائلًا: ألم يعجبك؟

فاعتذرت منه قائلة إني أفسدته بالمكواة؛ سهوًا، وأنه كان يعجبني كثيرًا وحزنت عليه، لم أستطع أن أخبره عندها بفعلة أخي، فربما حزن لذلك أو أخذ موقفًا عدائيًا من أخي، فكنت أُريد لليوم أن يمر بسلام.

فربت على كفي قائلًا: لا تحزني، سوف أحضر لكِ ما هو أجمل منه.

فابتسمت له وتلقينا الكثير من المباركات من الأهل والأصدقاء وانتهت الخِطبة على خير، بعد أسبوع، سافر حسين إلى العراق للعمل، وبدأت معاناتي الخاصة، فرغم خِطبته الرسمية لي، فإنني لم أسلم من إخوتي، فما زالوا يصرون عليَّ لفسخ الخِطبة حمدت الله أنه بقى أسبوع واحد فقط على بداية الدراسة حتى انشغل قليلًا عنهم، وينشغلون هم عني أيضًا.

فبدأت التحضير للجامعة وكان ما يفرحني أن حسناء صديقتي تدرس معي بنفس الجامعة، فبإمكاننا الذهاب والعودة معًا.

وبدأت أنشغل بدروسي، وإذا علمت أن أحد إخوتي قادم إلى المنزل، إذا كان يوم محاضرات، جلست بمكتبة الجامعة حتى يحين موعد رحيلهم برفقة حسناء حتى لا أسمع منهم ذلك الكلام الذي يؤرق مضجعي ويُحزنني، وإذا جاءوا بيوم الإجازة، ذهبت لبيت حسناء فأجلس معها طوال النهار بحجة المذاكرة، فيوفر لي ذلك أيضًا بعضًا من الوقت. فقد كنت أكره المواجهة وربما منطق إخوتي كان أقوى مني فخشيت الانسياق خلف آرائهم.

وكنت أُرسل خطابًا لحسين وأستلم منه خطابًا أيضًا كل شهر، فنحاول اختزال مشاعر شهر كامل من الشوق بهذا الخطاب، وكنت أحكي له عن مواقف تقابلني بالجامعة، وكان يحكي لي أيضًا عن نوادر تقابله أثناء عمله، وغالبًا ما كانت تُضحكني، ولكنه كان يشكو إليَّ دائمًا الغربة التي يشعر بها، وكان يُصبر نفسه أن ذلك أقصر الطرق لكي نجتمع قريبًا وكنت أُصبره أيضًا، فكم تشتاق روحي لليوم الذي أترك به هذا المنزل لأبدأ حياتي الخاصة بعيدًا عن عراك إخوتي.

كنت أُركز كثيرًا على دراستي حتى أحصل على مجموع مرتفع ولم أشأ أن يصبح العام عامين، فيكفي عذابًا واحدًا.
قضيت أغلب الوقت بين المذاكرة والذهاب للجامعة، واشتركتُ مع حسناء بنشاط طلابي حتى أقضي على الفراغ ولا أجد وقتًا للتفكير في أي عائق بحياتي.
فالتفكير يكون أحيانًا قاتلًا بطيئًا أكثر منه مُخرِجًا من العوائق.
مر عامي الأول بالجامعة وحصلت على تقدير مرتفع، فحمدت الله على ذلك كثيرًا، وأرسل لي حسين مع أحد أقاربه من الخارج فستانين هدية لنجاحي، كانا بألوان الربيع أحدهما أخضر اللون والآخر أبيض بنقوش ورود صفراء. وأرسل في خطابه يُهنؤني على نجاحي، ويقول: أعلم أن هاذين اللونين سيؤلمانكِ كثيرًا، ولكن أتمنى ألا يخطفك أحد آخر مني.
فأرسلت له رسالة أشكره فيها وأخبرته أني لن أُحب غيره؛ لذلك فليحاولوا، إن شاءوا، فلن يقدر أي أحد على خطفي منه.
ومرت سنة تلو الأخرى كانت سنوات ثقالًا، ولكني كنت أُعلل نفسي بالصبر، فليس أمامي غيره.
أثناء سفر حسين للخارج، كان يرسل نقودًا لوالديه، فقاموا بهدم منزلهم القديم وبناء منزل غيره، وكان له شقة بتلك البناية الجديدة بعد عامي الأخير بالجامعة، نزل حسين إجازة لمصر قضيناها ما بين خروج وضحك، وطلب رأيي في ديكورات البيت وتجهيزاته، وظل يُصبرني بأنه لم يبقَ له سوى عام واحد ويعود للاستقرار بمصر، وربما أنشأ له مشروعًا يدر له المال، فوافقته على ذلك وقررت إتمام عام الخدمة المدنية أثناء سفره حتى أنشغل قليلًا ويكون

الوقت متاحًا لي للإشراف على إكمال ما ينقص منزلنا، في أثناء ذلك العام، بعث لي شخص بخطاب يقول فيه إن حسين على علاقة بعدة نساء أُخريات، وأنه رآه برفقة أحدهن أثناء سفره.

فانهرت وقتها وجلست حسناء بجواري تُهدئني وتقول: ربما أراد شخص الإيقاع بينكما.

وحاولت الاستعلام من حسين، ولكنه أنكر ذلك ومر شهران ونحن متخاصمان بحجة أنني شككت به.

فكانت الدموع ترافقني بالنهار والليل، فأتساءل: هل هان عليه فراقي؟ وهل سينتهي ما بيننا حقًا هكذا دون محاولة منه للتغاضي عن الأمر؟ وأرسل لي بعدها خطابًا يعتذر فيه وأنه لا يقدر على خِيانتي حتى أنه أرسل لي فستان الفرح مع أحد رفاقه، لم أكن أعلم سبب تغييره لرأيه، ولكنني فرحت كثيرًا، فلقد تأكد لي ذلك الحب الذي وعدني به يومًا.

نويت عندها أن أثق بمقدار الحب الذي كان بيننا، لكن الشك من وقتها لم يفارقني، فربما أردت الاحتياط حتى لا تنجرح مشاعري.

مر العام وعاد حسين من السفر وأقمنا حفل الزفاف بصحبة الأهل والأصدقاء، وانتقلنا لمنزلنا وقام حسين بفتح مقهى بنفس قريتنا خلال شهرين من الزفاف، وانشغل بالعمل وانشغلت أنا بحملي الأول، فقد كان مُتعبًا بعض الشيء، وبدأت الحياة الزوجية الطويلة، كثيرون ممن يعتقدون أن حياة أي زوجين مثالية لا شيء يعكر صفوها، ولكن الحياة لا تخلو من الروتين والملل وبعض الخلافات التي تبدو للبعض تافهة، ولكن تلك اللحظات البسيطة من الحب هي التي تجعلنا قادرين على احتمالها.

مرت أشهر الحمل على خير ووضعت طِفلتي الأولى نورة، لقد كانت جميلة جدًا، كانت نُسخة عن والدتي - رحمة الله عليها - تشبهها بوجهها المستدير وشعرها الناعم الذي يسقط على عينيها وعينها البُنية، كانت طفلة مثالية وهادئة، وكنت أخاف حتى من نفسي عليها.

فصارت اهتمامي الأول والأخير حتى أن زوجي بات يشتكي أني لم أعد أُحبه مثل السابق، ولكن حبي لتلك الطفلة التي تخلقت بداخلي كان أعظم! فكنت أخاف أن يمس الحزن عينيها، فإذا ما بكت، أسرعت إليها أحاول المستحيل لإرضائها.

وتمر الأيام وهي تكبر أمامي ولا أمل النظر لوجهها أبدًا، وقاربت نورة من بلوغ العام وسمعت نفس الحديث مجددًا عن حسين من بعض الأشخاص، بأن هناك مَن رآه يضحك مع امرأة ما بالسوق، أو على الطريق بصحبة فلانة ما.

تملكاني الغيرة والغضب وقتها، فذهبت أشكو همي إلى حسناء، وكانت أمها جالسة، فسمعتنا فقالت لي: يا بنيتي، قديمًا قالوا:((لا يربط الراجل في البيت غير العيال)).

فَكَّرت في كلام والدة حسناء كثيرًا وحاولت إصلاح العلاقة بيني وبين حسين، فقد كان يشكو تغير معاملتي معه منذ ولادة ابنتنا، فصرت أحايله مرة وأتدلل عليه مرة حتى عدنا لسابق عهدنا.

وكأننا عدنا لمشاعر فترة الخطوبة وربما أكثر، فالآن صرنا زوجين، وخلال ثلاثة أشهر أخرى، حملت بطفلي الثاني تلك المرة حاولت موازنة الأمور، فأنا لا أريد خسارته لأي من كانت.

فعادت الأمور لنصابها من جديد، ولكن تلك المرة صار الحِمل عليَّ أكثر، فطفلتي الأولى وطفلي القادم بالطريق وزوجي وأعمال البيت.
فصرت مشغولة لا أجد الوقت بالتفكير حتى أن مرات الزيارة لأهلي انخفضت؛ لذلك ما عدت أسمع بالإشاعات من أحد.
فصارت تسعة أشهر أخرى ممتلئة بالحب ما بين إعطاء وأخذ.
ووضعت طفلي الثاني محمد وكان يشبه أباه كثيرًا وفرح به والده أيما فرح.
وقال: سيكون هذا الولد سندي بالحياة وعوني، إذا ما اشتد الدهر.
فأما إخوتي الفتيات وزوجة أبي، فكانوا يزرورنني من وقت لآخر لمساعدتي بأعمال البيت وحمل الطفلين وملاعبتهما وصاروا يعاملونني بطريقة أفضل من ذي قبل، فلا يلقين عليَّ المحاضرات، وأصبحن يتمنين لي السعادة، وأن يبارك الله في ولديَّ، ومرت الأيام تحمل السعادة وبعض التعب، فقررت التوقف عن الإنجاب قليلًا والاهتمام بطِفليّ حتى يشتد عودهما ويبدأا الدراسة، فلا أريد أن أصير مثل أمي بكثرة الإنجاب، فيكون مصيري الموت فأفارق الدنيا قبل التمتع برؤيتهما يكبران أمامي.
ومرت الأعوام ودخلت نورة المدرسة وبعدها بعام لحقها محمد أخوها وبدأنا فصلًا جديدًا من المسؤوليات والآمال. ومر عامان وفوجئت بحملي لطفلي الثالث. لم أكن أشأ الارتباط بطفل جديد الآن، ولكني لم أعترض على مشيئة الله.

ولكن مسؤولياتي صارت أكثر، فاتحني عندها حسين بأنه يريد افتتاح مقهى بالقاهرة، فسيكون هناك أفضل وسيحصل على مال أكثر ويستطيع به تأمين مستقبل الأولاد.

لكنني رفضت حينها وأخبرته أن رعاية الأطفال مع الحمل الجديد تأخذ الكثير من الوقت وأني أريده بجانبي هنا، فعمله بالقاهرة سوف يأخذ وقتًا طويلًا وسيضطر للسفر كثيرًا، وسيأخذ وقتًا حتى يؤمن لنا مسكنًا هناك. وكنت قد تعودت على قريتي، ولم أخرج منها من قبل سوى للذهاب للجامعة.

ولم أعتد البُعد عن أهلي وخاصة أن معاملتهم قد تغيرت معي بالسنوات الأخيرة وأصبحوا يزورونني كثيرًا ويخففون من أعبائي، ورغم مرور عام على وفاة والدي، ما زالت زوجة أبي تزورني وتوصي أبناءها من أبي (إخوتي الصغار) على قضاء حوائجي وكنت أستأنس بهم كثيرًا.

طافت ببالي الكثير من الأفكار، وظللت أُقنع حسين حتى عدل عن رأيه ولو مؤقتًا لحين انتهاء الحمل ونهاية العام الدراسي للأولاد.

مرت الأيام، ولكن من ثقلها شعرت وكأني أتممت عامين بذلك الحمل ووضع طفلي أخيرًا وأسميناه أحمد.

كانت ملامحه مختلطة، فهو يجمع صفات مني ومن أبيه، وساعدني الصغيران في مراعاته، فقد كانا يحملانه عني لحين انتهاء أعمال المنزل، وفرحا به كثيرًا، رغم أني كنت أحس بالغيرة من محمد تجاه أخيه الصغير أحيانًا، فإنه كان سريعًا ما يصفو ويسرع لحمله وملاعبته.

لا أُنكر مع ولادة أحمد، عادت السعادة ترافقنا مجددًا وربما كان هدوءً يسبق العاصفة مر عام من السكون، وعاد حسين لفتح موضوع العمل بالقاهرة من جديد وصار يعدد لي المزايا من دراسة أفضل للأولاد ومال أكثر يؤمِّن به مستقبل الأولاد، ولكني والأولاد لم نكن نشكو شيئًا.

كنت أشعر بالانقباض، كلما ذكر لي موضوع السفر، ومر عام آخر وما زال على إصراره ويحاول توسيط الكثير من الأشخاص لإقناعي من بين إخوته أو إخوتي حتى وافقت على مضض، قلت في نفسي: ربما ما أشعر به هو رهبة لا أكثر من أجل حياة جديدة ومكان جديد أجهلهم.

وسافر حسين للقاهرة قال إن أحد أصدقائه لديه قريب يملك كافيتريا بمكان جيد بالقاهرة، ويريد بيعه بسعر معقول، فإذا ما تم الأمر وعقد الصفقة، سيحاول العثور على شقة قريبة من الكافيتريا؛ ليقوم بتأجيرها مسكنًا لنا، ويسأل عن مدارس للأولاد بالمنطقة.

غاب حسين مدة أسبوع بالقاهرة وعاد ليُنهي إجراءات نقل الأولاد لمدرسة بالقاهرة ولنقل حاجياتنا وودعنا الأقارب والأصحاب وغادرنا في عربتين كنت أودع البلدة بكل ما فيها من حقول وأناس وبيوت وطيور ودواب كمن لن يراهم مجددًا، كأنني تركت جزءً من روحي برحيلي من القرية.

وصلنا إلى القاهرة لشقتنا الجديدة وقضينا عدة أيام في توضيب البيت والأغراض، كان بيتًا واسعًا بأثاث منظم وجديد وسيصبح لكل طفل من أطفالنا غرفة مستقلة. وكانت سعادة حسين غامرة

ولم أره بمثل تلك الحالة من قبل حتى أنه قام بالخروج معي والأولاد في عدة نزهات لبعض الحدائق والملاهي لعدة أيام قبل بداية الدراسة، وكانت سعادة الأولاد غامرة بذلك أيضًا.

فاستبشرت خيرًا قلت ربما تكون بداية جديدة سعيدة لنا جميعًا.

مرت الأيام سريعًا، فدخل كل من نورة ومحمد المرحلة الإعدادية وصار أحمد بالمرحلة الابتدائية، ومرت الأيام فانتقلوا إلى المرحلة الثانوية ثم إلى الجامعة وأثناء ذلك كنت أسمع ببعض المغامرات لزوجي مع نساء يحضرن إلى الكافيتريا، فكانت تعصف بذهني الأفكار، ولكني لم أملك الشجاعة للشكوى لأحد ما، وربما لخوفي من شماتة إخوتي، فسيقولون لي لقد أخبرناكِ سابقًا ولم تلتفتي لحديثنا.

ولكني احتكمت وقتها لصوت العقل فلديّ ثلاثة أبناء ولست امرأة عاملة ولم يكن أبي غنيًا ولم يترك لنا ميراثًا يُذكَر.

وحسين ما زال يعاملني والأولاد جيدًا، حتى بعد إصابتي بالروماتيزم منذ عام أصبحت قليلة الحركة، ولكنه بحث عن بنت تأتي؛ لتساعدني بأعمال البيت، وأصبح يخاف من إرهاقي بأعمال المنزل، ودائمًا ما يوصي مَطعَمًا ما؛ ليوصل الأكل إلى المنزل.

فلقد بدأت أشعر ببعض الراحة مؤخرًا حتى فكرت في نفسية الأولاد، فماذا سأجني من جعلهم يشعرون بخيبة الأمل تجاه والدهم ومرت الأيام وأصبحت نورة بعامها الثالث بالجامعة ومحمد بعامه الثاني، ولكن انقباض القلب والحزن عاد إليَّ من جديد وهذه المرة لم أكن أعلم سببه فحياتنا من بعيد تبدو مثالية للناظرين وفي عصر أحد الأيام عاد محمد من الجامعة وسلم عليّ

وجلس معي، وفجأة، بدأ يصرخ وهو يمسك ببطنه، فأمسكت به والدموع تنهمر من عيني كالسيل أسأله: ماذا بك؟ هل أنت بخير؟ وهو لا يجيبني، أسرعت أُخته إلى الهاتف فاتصلت بوالدها بمحل عمله، فأرسل لنا سيارة إسعاف وأسرع للحاق بنا على المشفى هو وباقي أبنائي، وطوال الطريق، أضع يدي تحت رأس ابني وأحاول طمأنته، ولكن الدموع لا تخبو من عينيّ وهو يمسك بيدي وفي عينيه نظرة من الرعب وأنا أصرخ بسائق عربة الإسعاف وأسأله ألا يمكنك الإسراع.

نظرت لوجه محمد وبدأ لونه يُحال أزرق ويتساقط العرق من جسده غزيرًا وبرد جسده وأنا لا أملك غير البكاء والصراخ، وصلنا إلى المشفى أخيرًا نزلت من العربة وقدماي لا تحملاني وقام المُسعِفون بحمله ودخل المشفى وأسرع والده لإكمال إجراءات إدخاله للمشفى، وذهبت أنا وأخواه نركض وراءه بممر طويل حتى أدخلوه غرفة الطوارئ، ومنعونا المُسعِفون من المرور وجلسنا ننتظر بالبهو، وبعد لحظات، خرج الطبيب ووجهه مُمتَقِع، نظر إليَّ وعيناه مُطرِقة بالأرض وهو يقول: أعتذر سيدتي، فلقد أُصيب ابنكِ بحالة تسمم وقد فارق الحياة منذ لحظة دخوله للمشفى.

فصرخت بوجه الطبيب: لا تقُل مات، ابني لم يمُت وصرت كالمجنونة أنادي باسمه محمد محمد، ولا أجد من يُجيبني، فلم تحملني قدماي ووقعت على الأرض مغشيًّا عليَ، أفقت بعدها على سرير بالمشفى، وحسين والأولاد يقفون بجانبي يذرفون الدموع، فأدركت أنه لم يكن مجرد كابوس.

فبدأت في البكاء أيضًا حتى أحسست بعدم قدرتي على النطق، فجاء الطبيب وأمر الممرضة بإعطائي مهدئًا، ونمت تلك الليلة ولم تفارقني صورة ابني وهو يصرخ طوال الليل، فقد كان حلمًا واحدًا طويلًا من نفس المشهد، فاستيقظت بالصباح وأنا أشعر باختناق.

كان حسين قد أنهى إجراءات خروج محمد من المشفى وأخذني أنا والأولاد وركبت بالسيارة وكنا بالطريق المُتَّجِه لقريتنا، كانت تبعد عن القاهرة حوالي ساعتين وعيناي لا تفارق العربة التي تحمل جثمان ابني ولا تتوقف عني الدموع، ونورة جالسة بجانبي تبكي وتربت على كتفيَّ، تساءلت: هل كانت مغادرتنا لقريتنا سبب ما حدث لنا؟ وهل لو تركناها ورحلنا، سيكون قدرنا أن نعود إليها متوسدي الأكفان؟

مر الوقت بطيئًا ووصلنا لبيتنا، ألقيت النظرة الأخيرة على ابني وقَبَّلته ما بين عينيه ورافقته دمعة مني معه إلى قبره. وددت لو رافقته بجسمي كله، لأحتضنه حتى نهاية الزمان وذهبنا للمقابر لدفنه، ورغم أن قدماي لم تكن قادرة على حملي، ولكني تثاقلت على نفسي حتى أودعه لمثواه الأخير بهذه الأرض، عدنا إلى البيت ولم أكن قادرة على أخذ العزاء من أحد، فدخلت إلى غرفتي وأقفلت بابي ومر يوم وثان وأنا لا أقدر على الأكل أو الشرب ويحايلني حسين والأولاد ويصرون عليَّ، ولكني أرفض الطعام، في اليوم الثالث، شعرت برعشة في جسدي كله، وبدأ العرق يتصبب من جسدي كله، فقاموا بإحضار الطبيب، فعَلَّق لي بعض المحاليل بدلًا من الأكل، فغفوت، لا أدري لكم من الوقت فرأيت محمد بحلمي يمد لي يده، وينادي باسمي، فقمت من نومي؛ لأجد نقاطًا من نور أمام

عيني، فوجدت نورة جالسة بجانبي، فطلبت منها أن تُحضِر لي كوب ماء، فقد كنت أشعر بالعطش الشديد والخوف، وإذا كان مُقَدَّر لي الموت الآن، لم أشأ أن ترى ابنتي ذلك، فكم أحببتها وحزنت لحزنها.....

فظللت أراقبها تخرج من باب الغرفة وأنا أقول: آسفة يا بنيتي، تمنيت لو حضرت فرحكِ، ولكنه قدري منذ زمن ولم أرَ شيئًا بعدها غير الظلام.....